يونا

حمامة سلام

نهاية إسماعيل بادي

الكتاب : يـونـا : حمامة سلام (رواية)

المؤلف : نهاية إسماعيل بادي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٨

رقم الإيداع : ١٥٩٦٨ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : 6 - 278 - 493 - 977 - 978 : I.S.B.N

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه . زهراء المعادي. القاهرة

ت فاكس : ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net



يونا

حمامة سلام

رواية

نهاية إسماعيل بادي

تقديم

هيثم نافل والي

قاص وروائي عراقي مغترب

ألمانيا/ ميونخ

ليس من العسير أن نحكم على أن العمل الروائي الثاني للروائية العراقية "نهاية إسماعيل بادي" هو من الأدب الواقعي الممتاز الذي له خصال الحياة التي نحياها ، لأنها وببساطة حاكت روايتها "يونا حمامة سلام" من نسيج الحياة كما هو الواقع ، مبرهنة بذلك على رهبنتها الفكرية، وشجاعتها الأدبية، وقدرتها الفذة على تجسيد الأحداث وكأنها مرّت على أبطال روايتها بالفعل وليس من صنع الخيال الذي يشبه الواقع، وهذا بحد ذاته هو الإبداع الحقيقي، مضافًا له عصارة مطالعاتها، سعة خبرتها، بُعد أفقها، وحُسن موهبتها، لتظهر لنا أدق الأحاسيس التي يشعر بها الإنسان بعد أن حللت شخصيته لتصل لأعمق نقطة من مداركه الخبيثة أو الخيِّرة تجاه نفسه والآخرين ، وبذلك تكون قد مزجت بين الأدب والمعالجات النفسية

والاجتماعية التي يتعرض لها الناس في حياتهم، في محاولة منها لإفادة القارئ لتكشف له كيف هو كما خلقه الله عاريًا لا يملك شيئًا في حياته غير رحمة خالقه.

نتنبأ للرواية بأنها ستحظى بمكانة خاصة داخل الأسرة الشرقية لما لها من رصد فكري ونفسي ثاقب بعد أن وضعت صاحبتها يديها على أخطر أمراض الشرق من حيث الخُبث، المكر، الكره، الحسد والغيرة ، ووجدت لها المعالجات الصحية التي تجعل المجتمع يعيش بأقل الأخطار والأضرار معافى قدر الإمكان.

وعلينا إلا ننسى بأن العطاء والإبداع نقطة نهاية أي كاتب، وبما أنهما لا ينضبان عند الفنان فليس هناك نهاية نظرية له، وهذا ما رأيناه واضحًا جليًا في العمل الأدبي الذي بين أيدينا والذي جاء مكملاً للإبداع الروائي الأول الذي أصدرته المؤلفة ونال إعجاب الجمهور العربي بشكل منقطع النظير، هذا من جانب، ومن جانب آخر -وحسب قناعتي الشخصية- لابد أن يكون لكل كاتب خط سير واضح المعالم مثلما أسلوبه الذي يجب أن يتفرد به... وأثناء قراءتنا للرواية لمسنا وجود تشابه في الرمز قد يكون أخفَّ حدة من روايتها الأولى وأكثر وضوحًا ، لكن الأسلوب الواقعي الرقيق الرشيق في السرد وتناولها المفردة البسيطة القريبة من القلب قبل الذهن أعطانا طابعًا بأن

الروائية "نهاية بادي" في الطريق الصحيح الذي يصعد بعنفوان نحو القمة بروية صافية لا تشوبها شائبة وذكاء حاد لا يمكن تجاهله.

أهمية الرواية تكمن في وجهتها الإنسانية الشاملة الغالبة التي من أجلها تم تدوينها، وهنا نذكر نقطة مهمة ونقف عندها طويلاً لأنها تعني لنا الكثير؛ إن لم تكن أبجدية كل عمل فني جاد ملتزم يظهر على السطح، حيث تختلف رسائل الكتّاب كما يختلف أسلوبهم الكتابي في طرح أفكارهم والكيفية التي يعالجون فيها قضايا العصر؛ إذن، يحق لنا القول بأن أخر رسائل الفنان هي الإنسان بغض النظر عن جنسه أو شكله أو لونه أو دينه، وأن أول شرط من شروط جائزة نوبل للآداب "أن تقرِّب بين بني الإنسان"، وكل ذلك وجدناه بشكل صريح من غير التواء في "حمامة سلام" حيث لا يمكن لأي نبيه أن يغفل عنه، وهنا تكمن مقدرة "نهاية" في التصرف الرائع أثناء سردها للحدث ونقل حركة أبطالها بشكل مثير للإعجاب لتقول للعالم أجمع بأن الغاية المثلى في الحياة هي الإنسان على الأرض، وكيف يتوجب عليه أن يعيش دون ألم، أو مرض، أو جهل، أو ظلم، أو أي نوع من أنواع الاضطهاد المنتشرة اليوم بأشكال وألوان لا حصر لها في مجتمعاتنا التي تُدعى: متحضرة!

وهنا تذكرنا ودون إرادة منا الأعمال الخالدة التي جاء بها الروائي العالمي "تيدور دوستويفسكي" من حيث تحليلاته الدقيقة للشخصية الإنسانية داخل النص الروائي دون أن يجعل القارئ ينتبه أو يشعر لما يدور حوله ، وهذا ما أعطاه صفة الخلود الذي سبق الطبيب النمساوي "فرويد" وتحليلاته بسبعين عامًا ، فعثرنا على بعض من تلك البصمات في روايتنا هذه تحاكي تلك الأمراض وتكشف عن عيوبها وعوراتها وتحددها بدقة ورمزية رائعة ، لتكون الروائية مثل طبيبة ماهرة متمرسة في علم النفس، مما أضاف لعملها هذا طابعًا جادًا ملتزمًا يضاف إلى رصيدها الأول عندما أصدرت باكورة أعمالها الروائية قبل عام "تحت غطاء الرب" كأنها بذلك تخاطب فيلسوف المعرة "أبو العلاء المعري" في قوله:

إذا فزعنـا، فـإن الأمـن غايتنـا   وإن آمنا فما نخلو من الفزع

وشيمة الأنس ممزوج بها ملل   فما تدوم على صبرٍ و لا جزع

أتمنى لها النجاح والتوفيق ، وللقارئ العربي المتعة الفكرية والروحية مع "يونا"، هذا الاسم الآرامي الجميل الذي يعني: "حمامة سلام ".

(١)

سيارة أجرة غير مجهزه بالتكييف ، مفتوحة النوافذ ؛ استقلتها "أم نبيل" بوجهها العريض كبدرٍ منيرٍ في تمامه ، حنطيه البشرة ، مرسومة الملامح بفنٍ دقيق ، داعبت نسمات صباح يوم صيفي حار من أجواء العراق خصلات شعرها الأسود فمالت تعاكس وجه ابنتها "هيفاء" الشقراء ذات الستة عشرة عام، المسندة رأسها على صدر أمها براحة واسترخاء ، شعرها الكستنائي الطويل المربوط للخلف تدلى إلى جانبها لتبدو عيناها العسليتان الواسعتان الناعستان؛ أكبر ، أنفها الدقيق المميز بالخال في نهاية طرفه الأيسر ، ابتسامة حب حالمة بحياة جديدة رُسِمت على فاها الوردي... علامات الفرح ، الابتهاج بدت واضحة على ملامحها رغم التعب...

تركت يدها لأختها "ولاء" ، الجالسة إلى جانبها الآخر ، حيث أنها تكبرها بسنة... بشرتها داكنة السمار ، أجفان عينيها منتفختان إلى الخارج ، أنفها أفطس ؛ بسبب سقوطها على وجهها عند اللعب في الصغر ، مما نجم عن كسره وتهشيم عظمه ، تبدو بملامحها هذه كالصينيات حيث كانت سبب عقدتها ، لم تستطيع التحرر منها!... تمسكها بقوة وحنان بكلتا يداها لتحس بوجودها وكأنها ستطير بعيدًا.

نبيل أخوهم الأكبر الرشيق بطول ووسامة ، جالس في المقدمة

بجانب السائق، سبقت بأمتار في سيرها سيارة أخرى كانت تصدح منها موسيقى بمعزوفات شعبية تدخل الآذان دون استئذان.

في بداية الشارع الرئيسي المبلط الممتد حتى نهاية الحي بشوارعه الفرعية المترامية على طرفيه خاطبت أم نبيل السائق بحلق ناشف من حرارة الجو والطرب ملك عليها إحساسها:

- الله يرضى عليك يا ولدي خفف السرعة قدر المستطاع، في مثل هذه المناسبات الاحتفال مع الأهل لا يعوض ، يزيدك بهجة وسعادة.

بعد مشاركتهم إحساسهم طول الطريق بابتسامة:

- أنتِ تأمرين يا خالة، لكِ ما ترغبين.

سارت السيارتان ببطء شديد ، مما دعا سكان الحي بالهروع للأبواب لكشف ومعرفة الأسباب... تجمهر الأولاد والشباب حول السيارتين ، سائرين بخطوات راقصة على صوت الطبل والمزمار... الحلوى تناثرت عليهم لا يعلمون من أين! بين الحين والحين ، غير مبالين بدخان السيارتين المتصاعد من سيرهما ، الأطفال يصفقون ويصفرون، النساء على الأبواب تزغرد مجاملة دون علم بالخبر اليقين... في الحي تعودوا أن يعيشوا الفرح والترح مع الكل وللكل... تزايد عدد المتجمهرين مع التقدم كل خطوة؛ السير السريع أو الجري لم يضايق أحدهم، الإنسان عند الفرح والابتهاج لا يشعر إلا بالمتعة.

سار الجميع كيلومترات ، حتى نهاية الحي بشارعه المتفرع يمينًا ويسارًا ، حيث سكن العائلة المحتفلة ، على هذا الركن شيد بيت كبير بسوره العالي كسور القلاع... كان الأهل والأحباب وكل الجيران بالانتظار وذبائحهم عند الباب ، طوقوا العائدين بالزغاريد والصيحات والأحضان ، سندوا هيفاء شبه حاملين إلى داخل غرفة فرش السرير للتو بشراشف من أثمن الأقمشة وردي اللون حيث طرزت أطرافه بأرق الجُمل ، أمنيات مثل على الوسادة جُملة (نوم العافية).

شُرع بابا البيت الحديديان الرفيعان على مصراعيهما ، في استقبال الزوار والفرقة الموسيقية لإكمال الاحتفال... دخل الجميع ممرًا طويلاً مصبوبًا بالأسمنت ، متصاعد نسبيًا ملاصقًا لسياج مشتمل (بيت صغير) متوسط الارتفاع ذي شباك صغير عند مدخل باب البيت الكبير ، كان المشتمل تابعًا للبيت سكنه ابنهم نبيل مع زوجته وأولاده الثلاثة ، هذا من جهة اليسار للممر ، أما الجهة اليمنى حديقة لا يفصلها عنه حاجز... في نهاية الممر انتصب عمود حنفية ماء بغدادية مصنوعة من النيكل رصاصي اللون برأس ذهبي جميل ، تحتها بُني حوض صغير مربع الشكل ؛ على مقربة منه قاعدة تنور طيني مفخور جيدًا ابتاعته أم نبيل حديثًا من جيرانها المتخصصين في عمل هذا ؛ نبت كمسلة بابلية في الحديقة الواسعة الغنَّاء بالأشجار المنخفضة عن مستوى البيت ، يحدها سياج عن داخل البيت بطوله ، كان الأولاد يتسلقونه كي يقطفوا ما تجود عليهم به الأشجار ، بالضبط على شكل حرف (L) باللغة

الإنجليزية يبدأ من نهاية الحرف القصيرة بحوض حنفية الماء لينتهي مع سياج الدار العالي الذي يتوسطه باب حديدي من ضرفة واحدة أغلب الوقت كان مُقفلاً ، يعلوها شباك يطل على الساقية المحاذية من اليسار الخلفي للدار... مزارع شاسعة بمحاصيل مختلفة تربطها بالحي قنطرة عبارة عن جذعي نخلتين رُبطتا بإحكام رُصَّت فوقهما أكياسٌ صُنعت من الخيش مملوءة بالتراب تمد الساقية مياهًا من أحد فروع نهر دجله لنهاية الحي... خلف الدار قطعة أرض ترابية واسعة تُركت عارية تفصل الدار عن البيوت التالية بعده... يقابل التنور مطبخ مستطيل طويل ينتهي بحمام إلى جانبه المرحاض متصل بدرج يصلك إلى الطابق العلوي حيث عند منتصفه غرفة متوسطة الحجم استغلتها بناتهم الخمس للمنام ، يصعد بك بقية الدرج إلى سطح كبير ، في أخره الأيمن درج رفيع وطويل يطل على شوارع المنطقة ، في نهايته سطح صغير يُعرف باسم (بيتونه) بالعراقي ، كانت تستغله أم نبيل لتجفيف الخضار كالباذنجان والطماطم في فصل الصيف بعد تقطيعها شرائح ووضعها بالصواني ورشها بالملح لمدة يومين.

على الجانب الآخر للدرج السفلي غرفة اُستغلت كمخزن للمواد الأولية للطعام كالدقيق ، الأرز... الخ ، لاصقتها الغرفة التي رقدت فيها هيفاء ، هي في الأصل لولدي العائلة عاطف وزاهر ؛ تنازلا عنها مؤقتًا لأختهما ، تليها أكبر غرف في الدار مخصصة للجلوس وأخرها كانت متوسطة الحجم غرفة الوالدين.

أمام باب الغرفة التي أريحت فيها هيفاء من مشقة وعناء الطريق المجهزة بمبردة هواء (مكيف كهربائي)، احتفل الجمع الغفير، كُلٌّ يرقص بطريقته بلا تردد أو تفكير، مساهمةً في الفرحة على عزف الفرقة التي لم تهدأ لحظة، منهم من دبك ومنْ تفنن بالرقص، أما لميس الأخت الكبرى فتوسطت المتجمهرين بعد تحررها من حمل ولدها "نور" ذي العام الأول؛ بإعطائه لأختها الأصغر وفاء، رقصت بحماس مقتربةً شيئًا فشيئا من الطبَّال، مما دعاه للابتعاد خطوة إلى الوراء وهي خلفه تزحف كأنها دُمية شُدَّت معه بخيط... الأخوات الأربع الباقيات تغامزن بينهن وانفجرنَّ بالضحك... تعالت الضحكات بسبب أو بدونه، والكل يرقصون... الحلوى تساقطت على الرؤوس كالمطر، تدافع الأطفال لجمعها من على الأرض.

بعد ساعة عزف؛ ودَّعتهم الفرقة ما أن تقاضوا أكثر من أجرهم كشكر وتكريم لما بذلوه من جهد واجتهاد... انسحب سرب الجيران بعضًا يجر ذيل بعض، دعواتهم الصادقة أن تدوم الأفراح وتبتعد الأحزان دون عودة، وأم نبيل ترجوهم واحدًا تلو الآخر للبقاء لتناول معهم وجبة الغداء؛ دون نجاح، فانسحبوا معتذرين.

عدة الشواء جُهزت في الحديقة في ركنٍ قريب من حنفية الماء، تولى أمرها محسن زوج ابنتهم الكبرى لميس مع بعض الأقرباء، انشغل الجميع بالتحضير لوجبة الغداء أسياخ لحم، كبد وكباب، قُلبت بمهل وروية على جمر الفحم، والجمع ينتظر...

نادت أم نبيل أصغر بناتها ذات السبعة أعوام والتي تدعى "يونا":

- اسألي هيفاء إن كانت ترغب بالأكل الآن؟

قفزت الصغيرة كغزاله حديثة الولادة، عادت بعد خمس دقائق لأمها ووجهها أصفر كلون الليمون تتعثر بالكلام:

- أمي، هيفاء... هيفاء...

انفجرت الكلمات من فمِّ الأم بسرعة:

- ما لها؟ عليكِ لعنة السماء... هيا انطقي.

- لا أعلم، إنها نائمة بعُمق كملائكة، لم تجِبني.

سقط اللحم الذي كان يُعدّ للشواء من يدها بذهول لحظات، ركضت حافية القدمين ترجو المساعدة بصراخ حيث ترقد ابنتها هيفاء، دخلت ووراءها ركض كل الرَّبْع متدافعين...

رائحة اللحم المشوي طازج على نار الفحم أغرت الأطفال، أتاح انشغال الكبار فرصة السطو على الأسياخ وأكل لحمها بنهمٍ وارتياح، ما أن رفع جلال ابن بكري العائلة نبيل أخر سيخ حتى انقضَّ عليه عمه عاطف أخر العنقود؛ كان في نهاية سنته الخامسة إنه من عمره؛ مهددًا متوعدًا إن لم يتنازل عن السيخ له، أبى جلال لعمه الاستسلام، شبَّ بينهما شجارٌ حامي الوطيس؛ تطور إلى عراك وضرب، شدَّ عاطف قميص جلال بكل ما أوتي من قوة راميًا إياه على الأرض متمرغًا بتراب الحديقة، تدحرجا مع بعضهما عدة مرات حتى قلبا المنقلة، سقط الجمر على إناء وُضِع فيه بنزين على جنب، التهب المكان فجأة، توهجت النار بلهب،

أكلت خشب التنور القريب منها على عجل... تداخلت الأصوات، صراخ وعويل، تراكض الجميع بين الموت والنار...

في هذه اللحظة الرهيبة من موت ودمار أفاقت هيفاء من نومها مرعوبة، صارخة، مما أفزع زوجها "بيتر" الراقد بجانبها قبل ساعات... تلمس باحثًا في عجل زر الضوء المنضدي، ما أصعب العثور عليه في مثل هذه اللحظات؛ متذمرًا يحدِّث نفسه وأصابعه تبحث عنه، وجده بعد عناء، أضاء نوره، ذهل من منظر زوجته الباكية بسخاء، أثار وضعها عطفه برثاء، قدَّم لها قدح ماء:

- اشربي لعله يبرد ما في صدرك من شقاء.

بيدٍ مرتجفة وأنفاس شاهقة لهثه بعلاء:

- إنه خليطٌ بين حقيقة وكابوس، لا أستطيع تسميته...

بلعت ريقها، وأكملت

- رافقني من بعد أن خضعت لعملية القلب الكبرى التي أجريتها في العراق.

- هدئي من روعكِ حبيبتي، إني معكِ إلى جانبك مهما حصل، ما عليكِ الآن إلا أن تنامي... بضحكة: في الصباح لنا جولة خنق مع هذا الكابوس الغدار.

- آسفة لأني أقلقتك... يا عمري.

- لكِ كل الحرية في إزعاجي ما دمتُ أسمع بعدها ما يطرب أذني ويزيد نبضات قلبي ويطمئن عقلي ويسحر روحي.

- ألم تملَّ من كلام الحب والهيام بعد سنه زواج؟

- كيف تتجرأين وتسألين هذا السؤال؟ هل نسيتِ كيف فزتُ بقلبك حد الاقتتال؟

- الله... الله... ما هذا الإلهام في أخر الليل؟

- هذا من بعض ما عندكم.

لحظات من التفكر بعمق والتردد حزمت الأمر:

- سأتصل بيونا لأطمئن على أمي وأبي غدًا صباحًا وأسألها ما آل له وضعهما، وربما سأذهب في القريب لزيارتهم، ما رأيكِ؟

- تأكدي مما تريدين قبل الإقدام على الخطوة التالية، ولا يغب عن بالك انزعاجكِ وتذمركِ من أختكِ وزوجها أول وأخر زيارة لهما.

- معك حق، ولكن للأمر وجهة نظر أخرى هي أن أختي لم تسيء لي، نقطة الاختلاف بيننا عندما زرناهما عبَّرتُ عن رأيي مما اضطرها مناقشتي حول رسالة بعثتها لهما في السابق تضمنت لهجة قاسيه بصدد الموضوع نفسه الذي طرحته وقت الزيارة برأي مغاير تمامًا، ولابد من أن يقال الحق هنا، لذلك تركت بيتها بانزعاج دون كلمة وداع، ربما كان هروبًا من نفسي. ما أغبى اللحظات التي نتزمت بها برأينا ونحن نوقن بأنها خطأ.

سالت دمعه على خدها رغمًا عنها... مسح دمعتها مغتنمًا الفرصة بعد استيقاظ غرائزه النائمة مداعبًا، ملامسًا، مقبلاً... انقض عليها كي لا يترك لها خيارًا... استسلمت بدورها له مسترخية... وعلى عجل أطفأ النور.

(٢)

بحثت هيفاء في أجندة أرقام هواتفها سعيًا لإيجاد رقم أختها "يونا" أو أخيها أخر العنقود عاطف ، قلّبتها عدة مرات بغضب ، نادت زوجها طالبة المساعدة بحذر ، أجابها:

- حبيبتي لِمَ هذه العصبية كلها؟

أثار حنقها برودة أعصابه أكثر ، أحمرّ وجهها الأبيض ، طفحت شعيرات أوردته بوضوح كأنها ستنفر ما فيها من دم على سطح بشرتها:

- كيف تريدني أن أهدأ وأنت حتى لم تكلّف نفسك بسؤالي إن كنت أحتاج مساعدة؟

- أي نوع من المساعدة يمكنني تقديمها لكِ يا عمري؟

باستهزاء وتوتر:

- قال أي نوع؟... هل هذا كل ما تستطيع فعله؟ تحرك أعمل أي شيء ، منذ ساعة وأنا لم أترك مكانًا ، بحثت في كل الأوراق لعلي أجد أرقام هواتفهم، هذه أجنده حديثة، أين هي القديمة؟

- من أين لي أن أعلم؟

- ماذا دهاك؟... ابحث معي أرجوك.

كظم غيظه بضحكة:

- يبدو قد فاتك بأني لم أتعلم لغتكِ العربية ولا أستطيع فك رموزها وليس لي بعد هذا العمر الرغبة في تعلمها.

بهتت بوجهه... هوت جالسة على أقرب أريكة منها بذهول ؛ كمن مسَّه تيار كهربائي:

- آ... آسفة... أ... أعتذر عما بدر مني... هل حقًا ما قلت؟

- ماذا قلتُ هذه المرة... خير إن شاء الله؟

- بأنكَ لا تود تعلم اللغة العربية كما وعدتني قبل الزواج؟

- كيف لا... حبيبتي من أجل عيونكِ كل شيء يهون ، أمريني... كيف لي مساعدتكِ يا قلبي؟

فترة صمت بتعذر :

- عندك حق ، سأترك البحث الآن ، ربما لم أجد ما أبحث عنه لأنني متعبة، سأؤجله إلى بعد الظهر.

- كما ترغبين.

- شكرًا حبيبي، وآسفة مرة أخرى على ما بدر مني.

- لا عليكِ... كل شيء تمام ولا يسترع الاهتمام.

- ماذا يعجبكَ أن تتناول على وجبة الغداء ؟ سمك أم دجاج مع الأرز على طريقة جماعتنا.

- أنا أعشق الثانية كما تعلمين.

محاولات من هيفاء استمرت أيامًا طوال في البحث ، للحصول على رقم هاتف أختها يونا كان شبه محال، رافقه حزن وبكاء، نفد صبرها في إيجاد حل، حاول زوجها جاهدًا أن يهوِّن عليها دون فائدة.. توقف نبض الحياة، عندما تذكرت فجأة أن لها أهلاً وأحبابًا

روحها تتوق لمعرفة منهم أخبار ، ذكريات طفولتها في ذلك الحي ، شمس بلادها ، عبق زهور صباها ، حبها لبيتهم مصحوبًا بشذى شبابها ؛ طفت على السطح بلا إنذار ، حنينها لتلك الأيام بكل ما حملت ؛ غلبها ، رغم ترف عيشتها الآن! كمن فتح قبوًا موصدًا لذكريات زمان، انتشر عبقها مسيطرة على المكان.

زاد زوجها قهرًا وألمًا وهو يراها بذاك الحال ، عجزه عن تقديم العون عصر قلبه عليها... كاد يأسها وحسرتها وهمها أن يقتلها.

بعد ظُهر يوم صيفٍ حار ونسماته العذبة المحملة بهواء البحر القريب من بيت هيفاء الصغير الجميل في إسبانيا الذي ابتاعه زوجها قبل أعوام ، هاجرا إليه تاركين ألمانيا للاستمتاع بجمال الحياة خصوصًا وأنه لا يربطه هناك رابط من زوجتيه المتوفيتين من قبل زواجه الثالث هذا ، وهو في سنين تقاعده الأولى المبكرة من العمل بسبب تقارير ضعف قلبه الطبية ، كان مستلقيًا بيتر القصير القامة المربوع البدن وجهه العريض ذو العينين الجوزيتين وأنفه الدقيق، ملامحه هذه تجعل المرء يشك في أصوله الألمانية... أسند رأسه بشعره الأسود من جانبيه ؛ الأصلع من وسطه؛ على مسند كرسي الاستلقاء العلوي الموضوع تحت ظلال أشجار البرتقال المثمرة في حديقة بيته الصغيرة... قفز واقفًا حين تذكر خدمة مدعومة حكوميًا بالاشتراك مع دائرة الاتصالات الهاتفية مقابل مبلغ من المال توفّر البحث عن رقم هاتف أي شخص بعد تقديم اسمه الثلاثي وعنوان سكنه... هرع مسرعًا

ليخبر هيفاء بهذا ، فرحًا بما يخفف عن حملها الذي تعبها... كان طوق نجاتها الأخير ، ضغطت على أزرار الهاتف بيد مرتعشة وقلبٍ عرف اليأس له فيه طريق... اتصلت على الفور بلا تأخير...

- مساء الخير ، أرجو مساعدتي... أنتم رجائي الأخير في الحصول على رقم هاتف أخي أو أختي في ألمانيا.

جاءها صوت نسائي جميل بعث الأمل في نفسها من جديد :

- هل لي يا سيدتي بمعرفة الاسم الثلاثي والعنوان للشخص المطلوب؟

- بكل تأكيد، اسمه عاطف... أخر عنوان له عندي هو : (.........)

- لكن هذا منذ سنة، عنوان قديم، غيَّر سكنه بعده مرتين.

- نعم، ذلك وارد جدًا... هل لي برقم هاتفه؟

- نعم، لهذا الغرض نحن نعمل، الرقم هو : (.........٠٠٤٩)

- أشكر لحضرتكِ لهذا المعروف.

- لا شكر على واجب.

بفرح غامر ضغطت أزرار الرقم الجديد ، لم تحتمل دقائق الانتظار المعدودة ، كان بودها القفز من داخل السلك لطرفه المقابل... رنين متواصل ، لم يشفي غليل صبرها أحد ، بعد لحظات ثِقال ردَّ شريط تسجيل يأسف لعدم قدرة الإجابة ولكن يمكن ترك رسالة بعد الصفارة... ضاق صدرها، رجعت وشكرت ربها لحصولها على الرقم، سرت مطمئنة نفسها ستعاود فيما بعد الاتصال.

المساء ذاته وأخر خيوط الشمس المحمرة منسحبة على مهل خجلاً من التوديع ، مازالت تنير السماء الصافية وترسم صورًا في الجمال ، استحل القمر متحديًا مكانها ، صراعٌ أزليٌ في إثبات الذات سيرافق الكون حتى الاندثار... عند الساعة الثامنة والنصف حاولت هيفاء مجددًا الاتصال بأخيها عاطف ، خفق قلبها بقوة مع كل رنة... أتاها صوت طفل بلغة ألمانيا مترددًا :

- ألو... من معي؟

بالعربية ورغبة عارمة سرقت مشاعرها في إن تكون بالقرب منه:

- إني عمتك هيفاء يا نور عيني... كيف حالك؟

بلهجة عربية مكسرة:

- ها... من تقصدين، أنتِ عمتي في إسبانيا؟
- نعم، أنا هي، أنت "كريم" أليس كذالك؟
- ما أفهم كلامك، أنا كريم.
- آسفة، سأحاول التحدث معك ببطء، اتفقنا يا غالي... كم أصبح عمرك الآن؟
- عمري خمسة؟
- يعني أنت في الروضة وسنه تمهيدية للمدرسة؟
- آسف لم أفهم ما قلتِ، انتظري سأعطيكِ أختي تتكلم معكِ.
- لا، انتظر لحظة...

شرحت له ما تريد قوله باللغة الألمانية راجية أن تتحدث لأبيه...

- بابا غير موجود هو وماما، بعد ساعة سيعودان.

- هذا يعني أنكَ لوحدك؟

- لا ، قلت لكِ أن أختي مريم معي.

- هل أستطيع التحدث معها؟.

- أي (نعم)، هذه مريم.

- حبيبتي مريم كيف حالك؟

- أنا بخير... وأنتِ؟... وقت طويل لم أسمع صوتك يا عمة؟

- كم أصبح عمركِ؟ وفي أي مرحله دراسية أنتِ الآن؟

- عمري أحد عشر ، وأنا الآن في الصف الخامس الابتدائي.

- ما شاء الله ، كبرتِ ، لم أركِ منذ كنت في السابعة من عمركِ تقريبًا.

- إني أذكر جيدًا أتيتِ أنتِ والخال بيتر لتباركا ولادة كريم عندما كان عمره خمسة أو ستة شهور.

- حبيبتي هل تعرفين رقم هاتف جدو وبيبي (الجد والجدة)؟

- لا ، إنهما مازالا في الهايم (مكان الإقامة المؤقتة لطالبي اللجوء).

- عندكِ حق عزيزتي الغالية ، متى أستطيع التكلم مع بابا ؟ هل يمكن إبلاغه بأنني اتصلت وسأعاود الاتصال مرة أخرى؟

- بعد ساعة سيعودان ماما وبابا من التدريب الرياضي ، أو غدًا بعد السابعة مساءً ، سأبلغهما ذلك.

- شكرًا لكِ حبيبتي ، قبلاتي لكم جميعًا ، لا تفتحي الباب لأي طارق وخذي بالك من نفسيكما.

- نعم أعرف هذا.

- مع السلامة، وتصبحون على خير.

- وأنتِ من أهله.

• • • •

ليلة مفعمة براحة بال لغدٍ أفضل ملؤها أمل عاشتها هيفاء، شاركها زوجها بيتر فرحتها، قام من جلسته على أريكة غرفة الجلوس حيث وضع أمامه كأسه وقد تبقى في قعره قليلٌ من الويسكي ذابت مكعبات الثلج للنصف، صحن مكسرات صغير وأخريات بسلطات مختلفة؛ متجهًا إلى جهاز التسجيل، ضغط على زر التشغيل، صدحت موسيقى عزف شرقي راجيًا هيفاء بالرقص على عزفها ليعيش لحظات شعور شهريار... تماوجت بغصن بانها ذي الأنوثة الفاتنة على أنغامها، وقلبها بدقاته من فرحتها كاد يقفز خارج صدرها...

ربع ساعة من الرقص المتواصل لمن في وضعها كافية جدًا لإجهادها، فقد خضعت قبل سنتين لعملية سد فتحة بين جدار قلبها للمرة الثانية؛ نجت منها بأعجوبة في ألمانيا كما في المرة الأولى في العراق... ارتمت إلى جانب زوجها بنفس لاهث وصدر خافق بقوة، مما أخاف زوجها بيتر عليها، بارتباك وأعصاب متوترة قدَّم لها كأسًا من الماء البارد واضعًا وسادة تحت قدميها بعدما رفعهما

على الأريكة ساندًا رأسها على صدره فاركًا برفق وحنان صدرها راجيًا بأخذ نفسها ببطء وعمق...

بعد راحة نسبية وبطبيعتها المائعة:

- لا تخف يا حبيبي... عمر الشقي باقي.

لمعت عيناه بدمع تجمد فيهما، بلع ريقه بمرارة:

- يجعل الله يومي قبل يومكِ يا عمري.

استدارت إليه، طوقته بذراعيها مقبِّلة.

• • • •

مساء اليوم التالي من بداية شهر حزيران، ونور السماء لم ينجلِ بعد، صراخ كريم وبكاؤه العالي المسموع من خارج الدار أزعج والده عاطف بعد عودته من العمل عند الساعة السادسة والنصف:

- ماذا هناك يا كرستينا، لماذا يبكي كريم بهذا الشكل؟

احتقن بياض وجه كريم محمرًا، انهمرت دموعه حبات كبيرة من عينيه الزرقاوين الناعستين، ورشح أنفه السائل من شدة البكاء:

- إنها... يا بابا، أخذت الحلوى من بين يدي.

- اهدأ كي أفهم، ومن هي التي أخذتها؟

ببكاء مستمر:

- كرستينا.

- سأعاقبك إن لم تسكت، بمنعك لمدة أسبوع من أكل الحلوى... ثم

هل هي صديقتك؟ قل ماما يا ولد...

بيأس في الإنصاف ومن قلبه زاد في البكاء صاح به أبوه صارخًا:

- كف عن البكاء، دماغي سينفجر من مشاق العمل مع الألمان... بعصبية: اللعنة، كرستينا أعطِه ما يريد ليصمت، ليس عندي أعصاب تحتمل... بغضب: قلت لكِ أعطيه ما يريد رجاءً.

بعناد:

- لكنه تناول ما فيه الكفاية لهذا اليوم، ووجبة العشاء جاهزة الآن، لو تناولها سوف لن يأكل ما يفيد جسمه.

باستسلام لعناد الألمان:

- أعدك يا حبيبي أن تحصل على ما يرضيك بعد العشاء، اتفقنا؟

بأمل الحصول على ما يرضيه، علمه يقين لو استمر ربما لن يطول شيئًا:

- اتفقنا، يا بابا.

عمَّ الهدوء نسبيا بعد هذه الهدنة... أخذ عاطف حمامًا سريعًا، جلس بعده على كرسيه لتناول وجبة العشاء حيث الجميع كانوا ينتظرون حول طاولة الطعام الكافية لثمانية أشخاص، والموضوعة في أقصى الزاوية اليمنى من غرفة الجلوس الواسعة المطلة على حديقة صغيرة تابعه للشقة الحديثة البناء، استغل عاطف جانبًا صغيرًا منها لزراعة الخضروات... شوربة الخضار الساخنة مع قلوب الدجاج رائحتها الشهية تدخل الأنوف فيسيل اللعاب في الأفواه، سكبتها كرستينا في طاسة على شكل وردة من السيراميك

كبيرة بيضاء، وأزهار مختلفة الألوان رُسمت عليها في كل مكان بغطاء ذي ثقب مخصوص للمغرفة توسطت جزء المائدة المستغل ومن حولها صحون: زبد، شرائح مختلفة من اللحم البارد، شرائح خيار وطماطم وُضعت بشكل متناسق شهي، وسلة شرائح الخبز الأسمر، أمام كل واحد طاسه للشوربة، صحن صغير بجانبه ملعقة أكل وسكين... تمنوا لبعضهم شهيه طيبة وبدأوا بالأكل... بعد السابعة بقليل وما أن احتسى عاطف ملعقتين من الشوربة حتى رنَّ الهاتف في الممر قرب غرفة الجلوس... حينها تذكرت ابنتهم مريم عمتها هيفاء واتصالها ليلة أمس بأسف:

- إني آسفة، لابد أنها عمة هيفاء، نسيت أن أبلغكما أنها اتصلت بالأمس وقالت إنها ستعاود الاتصال... هل أرفع السماعة؟

أسرع عاطف الخُطى إلى الهاتف باستغراب:

- سترك يا رب، عسى أن يكون الأمر خيرًا، منذ أكثر من أربع سنوات ونحن لا نعرف عنها خبرًا !.

بشوقٍ وخوفٍ من المجهول:

- ألو عاطف، من معي؟ تفضل.

بحنين مكبوحٍ منذُ سنين:

- عاطف حبيبي، أنا هيفاء، كيف حالكَ؟

- أنا بخير... ما وراءكِ، هل أنتِ بخير؟

- نعم، هل أزعجكَ تليفوني؟ لماذا هذا البرود؟... أهذا ما قدرك الله عليه؟ هل أخطأت عندما كلمتكَ؟

- هوني عليكِ، ما خطر ببالي لحظه مضايقتكِ، بل على العكس، أفرحني سماع صوتكِ بعد هذا الانقطاع.

- ماذا تقصد؟... على العموم لقد اتصلت لمعرفة معلومات عن أمي وأبي... هل هناك من جديد؟

بقهرٍ وحزن:

- كلا، لقد ذهبت معهما يونا وطلبت لهما اللجوء، وهما يقيمان عندها الآن.

- هل لي من أخذ رقمها؟

- بالتأكيد، هل لديك ما تكتبين به؟

- لحظة... الآن تستطيع رده...

- إذًا، اكتبي بدالة ألمانيا تعرفينها، ثم (.......٠٠٤٩٨٩).

- شكرًا لكَ على المساعدة.

- لكني لم أشبع منكِ، وأريد معرفة المزيد عن أخبارك؟

- نحن بخير، هل تود معرفة شيء بعينه؟

- لا، أنا سعيد بسماع صوتك، وأتمنى أن تعاودي الاتصال مرة أخرى.

- إن شاء الله... مع السلامة.

انغلق الخط دون انتظار لسماع الجواب...

شرد سارحًا بذهنه باحثًا، لعله يجد تفسيرًا... انحبس الدمع مترقرقًا في عينيه الخضراوين صامتًا، تجمد كمن رُشَّ بماء مثلج فجأة

متسائلاً عن سبب هذا الجفاء، معرفته بأخته ذات القلب المرهف الحنون أكيد إحساسها كإحساسه تساؤلات من غير أجوبة... لِمَ يتجلد الإنسان في مشاعره إلى حدّ الإجحاف بحق لمن بروحه وعقله مكان؟

بصوت الفضول الهادر الحازم:

- هل هناك مصيبة تستدعي كل هذا التفكير؟ أختكَ وتعرفها... بعقلها الصغير وشعورها مغلاة به، لا تهتم أنه ليس بالجديد منها عليكَ.

لم يخفِ غضبه:

- ماذا تريدين مني، هل أرقص؟ أنتِ تعرفين منْ كان سبب خلافنا هذا، أليس كذلك؟ أم نسيتِ؟ ارحميني يرحمكِ الله.

- هل أنا الآن السبب؟! صحيح المثل الذي يقول: يا اللي قاعدين يكفيكم شر الجايين.

- أرجوكِ، لم يعد عندي القدرة على الجدال الآن، لذا وتلافيًا لأي خلافات وقبل أن تشب كفي عن السجال معي أتوسل إليكِ، أم تفضلين أن أترك البيت لكِ؟

- هل تريد أن تخرسني وأنا لم أفعل شيئًا؟

غيّر ملابسه على عجل دون تردد... صفق باب الدار خلفه بقوة.

(٣)

بدأت خيوط أشعة الشمس البرتقالية المحمّرة تسحب أخر ذيولها ببطء من السماء مودعة بأمل الغد ، تاركة ضوء القمر الفضيّ يعكس نوره بلا منازع على إسفلت الشارع الذي سار فيه عاطف فكره السارح شغل عقله متكدرًا والبحث كاد يشله لتفسير ما جرى كيف لإنسان برقة مشاعر أخته هيفاء أن يقسو على هذا النحو؟

أرجعه إلى واقعه مفزوعًا بعد خطوتين ليعبر الشارع الرئيسي دون تركيز ؛ صرير فرامل عالٍ صادر عن سيارة خصوصي بيضاء اللون نوع مرسيدس فخمة فرشت الشارع ، كانت تقودها امرأة في منتصف عقدها الخامس؛ شقراء، على بُعد مترٍ منه...

اصفرَّ وجهه ذُعرًا، خرجت الكلمات من فمه الجاف متعثرة:

- آسف، حقًا لا أعرف كيف جازفتُ بحياتي هكذا؟

بتوترٍ وحنق:

- الذي فعلته جنون، كدت أصدمكَ، لولا ستر الله.

- حصل خير ، أرجو المعذرة.

- أي خير تقصد؟ إذا كنت غير واعٍ لنفسك ؛ لا تخرج من دارك وتقلق الآخرين من حولك.

- أرجوكِ لا تكثري الكلام... أكملي طريقكِ في حفظ الله.

- أكيد أنت مجنون...

- المجنون هو أنتِ بنت الـ......

أكمل طريقه للرصيف المقابل بقدمين مرتجفتين، وشتائمه مستمرة بصوتٍ يعلو تارةً وينخفض تارةً أخرى على المرأة التي أفزعته... أشجار باسقة غير مثمرة فصلت الشارع بعد الرصيف الضيق تناثرت بعض وريقاتها المصفرة عليه، عن حديقة المدينة الكبيرة يسمح بدخولها ممر ضيق نبت على طرفي بدايته عمودان من حديد عريضان، ما أن تطأها الأقدام حتى تأخذك لعالم الخيال، انعكاس ضوء القمر على ماء البركة الاصطناعية التي توسطت الحديقة تراه في قلب البركة، يمحو جزءًا منه تموج الماء أثر حركة أسماك الزينة الذهبية الباحثة عما يغذيها، سرعان ما يعود مكتملاً من جديد عند مغادرته، أخذ البط والإوز الأبيض النائم أحد جوانبها القريب من السنابل الذهبية المتلألئة تحت ضوء القمر والزهور بألوانها وأشكالها البديعة...

جال عاطف بنظره باحثًا عن مكانٍ ينشرح له قلبه ويزيل عنه همه... وقع بصره على أريكة ليست ببعيدة عن المنظر الساحر... جلس وعيناه شاخصتان بجمال البدر المنعكس على سطح الماء.

تذكر سبب الخلاف الذي لا يعرف حقيقة أمره، قبل أكثر من خمس سنوات عندما اتصل بأخته هيفاء هاتفيًا:

- عزيزتي هيفاء، نودُّ قضاء العطلة الصيفية في إسبانيا، ما رأيك أي فندق يكون مناسبًا؟

- ماذا تقول، أي فندق؟ هل أنت واعٍ لما تقول؟ منذ متى نفكر بهذه الطريقة؟ بيت أختك مفتوح لكم في أي وقت.

- هكذا دون أن تشاوري زوجكِ الرأي؟
- لا عليك منه، فهو يعرف طباعنا.
- اتفقنا إذن، سنكون عندكما في نهاية الشهر السابع بإذن الله.
- سأكون على أحرِّ الشوق للقائكم.

لوعة الحنين المكبوحة في الأعماق لابد أن تطفو في يومٍ ما...

استقبال حافل وأحضان تشفي ظمأ سنين الغربة عن الأهل والأحباب، دموع فرح غسلت روحهم شوقًا لبلدهم الذي كُتب عليه الدمار وفرَّ أهله حُفاة في كل البقاع طلبًا للأمان!

كيف لمن يعيش مذلولاً مكسورًا في بيته أن ينتظر الاحترام في غيره؟... مصيبة العراق أصبحت نائبة كل الوطن الذي يُدعى عربيًا، أين تكمن العلة؟ هل في السكوت عن الحق والخجل من مواجهة الذات في دواخل إنساننا العربي، أم التربية في نشأته على التذلل للقوي؟

أسابيع لا تُنسى سعادتها التي مكثها عاطف برفقة زوجته وأولاده بضيافة كرم أخته هيفاء... لولا الموقف الذي لا يريد الاعتراف بحقيقته خوفًا من الابتعاد عن زوجته... عندما سمعتها هيفاء صدفةً وهي تنوي جلب صحونًا من المطبخ تحضيرًا للمائدة لتناول وجبة الغداء بعد الشواء في الحديقة حيث انغمسا بسرور وغبطة هي وأخيها في تحضيرها، كانت كريستينا زوجة أخيها تحدث بيتر زوج هيفاء:

- إن للعرب تقاليدَ وأعرافًا بالية كالتي عايشها أجدادنا في عصر

ما قبل النهضة ، إني خائفة على ابنتي مريم منها ، زوجي منهم كما تعرف ، حُب التسلط في دمهم...

لم تستطع سماع المزيد ، بالكاد كظمت غيظها... دخلت هيفاء عليهما بكل أدب من أجل تلافي زعل أخيها عاطف:

- اسأل نفسي لماذا استقتلتِ إذن من أجل الارتباط به وأنتِ تعلمين منذ البدء أنه عربي؟

بوقاحة وتصنع براءة الأطفال:

- ماذا تقصدين بذلك؟

بحرقة كمن لسعته جمرة متقدة:

- ألم تتوسلي بأختنا يونا أن تتوسط لكِ عنده وبأنكِ حامل؟

تلفتت حولها تبحث عن منقذها المخدوع:

- ما الداعي لهذا الكلام الآن؟

ضحكت هيفاء مستهزئة:

- لم يرق لكِ العرب وأعرافهم كما أخبرتِ زوجي...

التفتت إلى زوجها بيتر الذي احتقن وجهه محمرًا خجلاً من الموقف ، تابعت : قبل قليل.... نظرت في عيني زوجها مجددًا منتظرة التأييد... لاذ بالصمت كمخرج للموقف.

لكن كرستينا لم تصمت ؛ أخذت تبكي ودموعها منهمرة بغزارة أمام زوجها لتكسبه إلى صفها فيما تخبره وهي تعلم نقطة ضعفه حتى لو كان متأكدًا بعدم صحة ما تقول في قراره نفسه:

- أختك لم تفهم حديثي مع زوجها بحكم جهلها باللغة الألمانية ،

افترت عليَّ بأني أسيء لكم.

حصل ما خشيته هيفاء بعد توسلات ورجاء للبقاء ، اكتفوا حينها بالغداء بِهمٍ وعدم شهية ، أكلوا على عجل ، حملوا أمتعتهم ورحلوا دون عودة أو خط رجعة.

سرى في بدن عاطف قشعريرة برد فصلته عن ذكرياته ، أسدل الليل ظلمته ، نهض بعد أن نظر إلى ساعته اليدوية ، الساعة تجاوزت التاسعة، سر نفسه بانكسار :

- لابد من وقفه مع الذات لقتل المتناقضات.

خطى خطواته بتثاقل وكأنه يحمل ثقلاً يفوقه وزنًا ، سار وحزنه لتفكك العلاقات يعصر أحشاءه والدوي كالإعصار في رأسه يكلم نفسه بوزرها... زال كل ما انتابه حين لاحت له فكرة الاتصال بأخته يونا ورمي حمله عليها... ومَنْ غيرها يتحمل الشقاء بفرح لإسعاد من حولها؟! وكما تعود في كل مرة...

• • • •

بفرحة مَنْ لقى جوهرة ثمينة تغني حياته القادمة ، دخل الدار... نظرت زوجته كرستينا لتعابير وجهه الفرحة باستغراب :

- ماذا وراءك ، لِمَ هذا الفرح كله؟ فمن رآك قبل ساعتين تقريبًا لا يعرفك الآن؟

- وهل يحزنك فرحي؟

- طبعًا لا ، ولكنك لم تخبرني ما سبب هذا التغيير ؟ بعد أن تركتنا بقلق عليك.

- هل مازلتُ حبيبك حتى تقلقي؟ هه، على العموم شكرًا لكِ على الاهتمام، وآسف على الإزعاج.

- ماذا دهاك يا رجل؟ الحق عليَّ...

ركبها شيطان الغضب ولعب بعقلها كما يهوى بانفعال، تابعت:

- منْ على شاكلتك الأفضل أن يُترك ولا يُسأل.

توسعت عيناه والشرر تطاير منهما بصوت مجعجع:

- ماذا تقصدين من حديثك هذا؟

نهض ابنهما والرعب سيطر عليه باكيًا راكضًا لحضن أبيه... هدَّأ عاطف من روع ابنه ملامسًا شعره بحنان مقبلاً إياه...

بعد لحظات صمت وتفكير... هي تعرف زوجها حق المعرفة؛ إن تمادت معه ربما تكون العواقب لا تحمد عقباها:

- إني آسفة ، لم أود مضايقتك حياتي أنت ، كل ما هنالك وددت مشاركتك فرحتك، هل هذا كثير؟

بأسف ممزوجًا بالخجل:

- كيف؟ بالتأكيد لا ، ومن لي غيرك يشاركنني حزني ومسراتي؟

- حبيبي هل لي أعرف سبب اغتباطك إذن؟

- كل ما في الأمر نويت الاتصال بيونا وسؤالها إن كانت هيفاء اتصلت بها...

بفضول خارج من طبعها:
- ما فائدة ذلك؟
- كي أعرف ما دار بينهما من حديث، تعلمين كم يونا ساذجة! سأستدرجها في الحديث لتبوح بكل ما حصل، وما الغاية من اتصال هيفاء؟
تفتحت أساريرها للحديث بانشراح وحب مفتعل:
- لا حاجة لكَ لذلك، حد علمي أنها طيبة وتحب الخير للجميع لكنها ليست ساذجة، تصدق كل ما يقال دون شك، ذلك نابع من صدقها مع نفسها والآخرين، كم أحسدها لطبعها هذا! كيف يمكن للإنسان في وقتنا هذا أن يخبئ كل هذا الحب والخير للغير؟
بتذمر وعدم مبالاة في ما قالته بخصوص أخته، بتركيز على ما أقلق مضجعه:
- ربما ما تقولين صحيح... على العموم سأتصل بها لمعرفة ما حصل.
رغبتها في المعرفة تكاد تقتلها، بصوت رحيم:
- الآن في هذا الوقت، ربما يكونوا نائمين، ولو أنهم ينامون متأخرًا دومًا؟
وهو يضغط على أزرار أرقام الهاتف:
- لا يهم.
بتوتر انتظر لحظات، حتى أتاه الرد بصوتٍ مرتجفٍ خافت:
- يا رب سترك، ألو...

- مساء الخير ، ما بكِ؟ لمَ هذا الرعب؟ أنا عاطف.

لم يخف مضايقته هاني زوج أخته يونا باستنكار :

- ما الذي دفعك للاتصال في مثل هذا الوقت؟ هل هناك مشكلة لا سمح الله؟

مصطنعًا الغضب:

- ما بك يا رجل؟ أولاً ، رد السلام، وبعدها فجر حمم بركانكَ؟

أخذ نفسًا عميقًا واستغفر ربه بصوت بالكاد يسمع:

- أنا آسف، لم يكن قصدي مضايقتك ولكنكَ تعلم أننا في هذا الوقت نكون نائمين لالتزامنا - كما لا يخفى عليك - بعمل مبكر ، وأولادنا بدوام مدارس.

ليحسسه بالذنب وأنه لا يفرق معه:

- على كل حال، هل لي التحدث لأختي؟

أثار حفيظته وأخرجه عن طوره:

- ألم تفهم ما قلت؟ إنها نائمة، لذا أرجو الاتصال بها غدًا قبل أن تنام، إذا أمكن.

سحبت يونا سماعة الهاتف بسرعة من يد زوجها بنبرة خجل:

- ألو ، عاطف، لقد أيقظني رنين الهاتف، مساؤك خير وسعادة، كيف حالكم؟... جميعكم بخير إن شاء الله... مشتاقة لكم جدًا.

بصوت غاضب وبثقة صاحب الفضل:

- ما به زوجك ؟ متى ينزل من عرشه ويحن على عبيد الله

البسطاء ؟ أمي ورب ما تعبدين حملتني في بطنها تسعة أشهر ؟ على ماذا هذا التكبر و...؟

قاطعته أخته متلعثمة كي توقفه عن التجاوز على زوجها:

- لكنكَ تعرف جيدًا أنه ليس على هذا النحو ، كل ما في الأمر أنه لا يعرف المجاملة، يقول ما يدور في عقله مباشرةً دون تزويق ، دعنا من هذا الآن ، ما وراءك ؟ لم أتعود منك الاتصال في مثل هذا الوقت ، ولا حتى في الشديد القوي كما يُقال... هيا قل ما عندك دون تردد.

مداريًا كما تعود ما يرغبه تحت مسميات في أغلب الأحيان لا يعنيها، مفضوحة لأخته:

- لا شيء ، فقط اشتقت لسماع أخباركم ، فمنذ أسبوع للانشغال بحياة الغربة العينة كما تعلمين ؛ لم نتحدث ، ووددتُ معرفة أخباركم وأخبار أمي وأبي؟

أخفت مضايقتها كما في كل مرة... من حبها له جارت أخاها ، ولمعرفتها به وما يجول في داخله:

- ماذا جرى ؟ قبل ساعة اتصلت بنا هيفاء بعد أنقطاع سنين وسألت عنهما وكأنني لا أعنيها ، حتى أنها لم تسال عن أخبارنا ، والله لو كنت أعمل عندها لكانت حدثتني بألطف من هذا ، فما أن سمعت صوتي حتى انهالت بكلامها المستفز : أمي وأبي بخير ؟ هل أكملتِ إجراء معاملات اللجوء لهما وأبقيتهما عندك ؟... كظمت غيظي في داخلي ، باشتياق جامح صادق نابع من لهفتي

سألت عن أخبارها... بتهكم أجابتني بأنها تنتظر الرد على أسئلتها... انهمرت دموعي رغمًا عني...

بشجنٍ تابعت:

- سبحان الله كيف يكون قلبها الرقيق قاسيًا عليَّ لهذا الحد؟ وأنا الغبية التي لم تضمر في داخلها إلا كل الحب والشوق للجميع...

قاطعها بمللٍ وتذمر:

- هل لكِ أن تختصري؟ كما تعلمين قد تأخر الوقت، وغدًا عندي عمل باكر.

مضايقتها لم تظهرها بحديثها خوفًا من جرح مشاعره:

- لتؤجل الحديث للغد، أو أي وقت آخر تراه مناسبًا إذن.

فضوله كاد يقتله:

- لكنك لم تخبريني بماذا أجبتِها بخصوص أمي وأبي؟

باستغراب الغريب عن بلد جديد له:

- ألم تقل ليس لديك متسع من الوقت؟

- قولي باختصار.

صمت... استرجع تفكيرها مواقف مشابهة كثيرة، أحسَّت بألمٍ مفاجئ في معدتها ورغبة بالتقيؤ... أعادها إلى وقعها كلمات أخيها عبر سماعة الهاتف:

- ألو... هل مازلتِ معي؟

بمشاعر المغترب عن الأهل، وببرود كاد يقتلها لفتور الإحساس بالآخر:

- قلتُ لها إنهما بخير وتمَّ أحسن ما تمنيتِ لهما، ثبوتهما في ميونخ بعد أن بكيت من قلبي تضرعًا بما أسعفتني به لغتي الانكليزية البسيطة لأجلهما أمام المسئول للعدول عن قرار فرزهما إلى قرية تبعد عن ميونخ مائة كيلومتر...

أخذت نفسًا عميقًا، ضغطت على معدتها لتقلل ألمها، وواصلت:

- أتصور انك أعلم بصعوبة تعامل الألمان في دوائر الدولة، لذا تركتني وحدي في هذه المهمة برغم سهولتها على زوجتك كرستينا!... على العموم إنهما بخير، والآن نائمين عندي، وكما تعلم بعد أن جلبت أبي منذ نهاية الأسبوع الماضي لنا، أتصور أنكَ رأيت أمي عندي، الحمد لله لم توقظهما هلهلة الهاتف... هل تحب أن تعرف شيئًا آخر؟

- لا، لا شيء هذا كل ما وددت معرفته، تصبحين على خير.

نزف قلبها قهرًا لتجاهل شعورها وأحاسيسها:

- وأنتم من أهله.

أوت إلى الفراش والدموع حبيسة عيونها، اندست قرب زوجها هاني... بانفعال وفوران كفوران البركان حدَّثها:

- لماذا اتصل؟ ما هو الأمر المهم الذي أرقَّ مضجعه وحرق مخدعه وجعله لا يطيق الانتظار للغد! من الظاهر أنه تألمن (أي تطبع بطبع الألمان) في ما يود ووقت ما يشاء... سبحانك يا رب يما نعيش ونرى وسنتحمل!

حزنها عقد لسانها، فكل من حولها يغني على ليلاه... نطقت

بصعوبة مَنْ تعلم الحديث للتو:

- في الصباح - كما يُقال - رباح.

- ولكنكِ لم تجيبي على سؤالي؟

تملك الغضب منها بنبرة لا تخلو منه:

- هل هو جديد عليك؟ كل ما في الأمر أنه أراد معرفة الحديث الذي دار بيني وبين هيفاء... هل ارتحت الآن؟

- كما في كل مرة؛ أنا المخطئ.

- أعوذُ بالله، مَنْ قال هذا؟ إني آسفة، ربما ضايقتك دون قصد يا عزيزي... هل لنا أن ننام الآن؟

بمضايقه واضحة:

- طبعًا... ومن قال غير هذا؟

(٤)

على الإنسان أن يتقبل برضا ما مُنح بالحياة هبةً من الله...
لذا تفاوت البشر بما حمل من فكر ورزق ؛
حتى الروح في داخل الجسد.

يونا فتاة في بداية عقدها الثالث ، طولها متوسط ، بارزة الأنوثة ، تتصور لون بشرتها حنطيه فاتح اللون ، تعتبر نفسها عادية جدًا ؛ وربما أقل ، استغرابها يكون كبيرًا عندما يقول لها أحدهم إنها جميلة ، أو أي جُملة من هذا القبيل ، لون عينيها عسلي مائل للخضار يبرز ما أن يرى نور الشمس الذي يبعث فيها طاقة غير عادية للإقبال على الاستمرار بالكفاح في معترك الحياة ، إنها ليست من النساء المغرمات بالمرآة لانشغال تفكيرها في الكثير من أمور معاناتها وبنات جنسها في المجتمع العربي ؛ هذا من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى لقناعتها المطلقة أن المرأة بشر ما يميزها هو تفكير عقلها لا جمال وجهها أو مفاتن جسدها.

اقترنت بزوجها هاني بعد عناء ، التقت به صدفةً في أحد أعراس أقاربهم ، في البدء لم تعره اهتمامًا ذا بال ، هو من انجذب لها... هي لا تعرف المراوغة ولا تحب التزويق ، مباشره وصريحة مع نفسها والآخرين ، ما أرّقها نفور الكثير عنها عيشها في دوامة

مستمرة بحثًا لاكتشاف السبب دون جدوى ، لم تدرك أن أغلب البشر لا يحب أن تضع أمامه مرآة تعكس صورته البشعة... هل هذه هي علة في مجتمعنا الحديث المتطور ؟

اقترب منها هاني بجرأته، تحدث معها مباشرة كوصول السهم إلى هدفه دون انحراف، مما شدها إليه فيما بعد وأثار فضولها لمعرفة الشخص القابع في داخلهِ:

- أودُّ التحدث إليكِ إن سمحتِ لي.

تطلعت له باستغراب:

- بأي خصوص تودُّ التحدث؟

دون تمهيد:

- بخصوصنا، أقصد أنا وأنتِ.

أثارت كلماته خجلاً ونارًا في داخلها:

- هل نعرف بعض من قبل حتى نتكلم بخصوصيتنا؟

- لا... بلع ريقه: لم يحصل لي الشرف من قبل... أخذ نفسًا عميقًا: إنها المرة الأولى التي أراكِ فيها... إني آسف ، خانني التعبير ، أقصد رغبتي عارمة بالتعرف عليكِ ، أرجو أن تسمحي لي نيل هذا الشرف؟

همست أختها "سها" التي تكبرها بأربع سنوات ذات الخبرة في هذا المجال الجالسة قربها بعد أن تنصتت لكل كلمة:

- لا تكوني غبية، إنه معجب بكِ، امنحيه فرصة.

- كيف يعني؟... ما الذي يجب عليَّ فعله؟

بضجر لغباء أختها في هذا المجال من وجهة نظرها:
- كوني أكثر لطفًا، جامليه بكلمات، جذب وشد، كأن تقولي له: في مثل هذا الضجيج لا نستطيع سماع بعض بوضوح، أو أي عبارة على هذا النحو كي تتركي له مجال الدخول معكِ في الحديث، وليس كما فعلتِ.

طال وقت انتظار الرد، شعور هاني في أمل جعله يتنحى جانبًا كي يسمح لهما براحة الحديث، إحساسه دلَّه أن هناك مشكلة ما في هذا الموضوع، لذا حدَّث نفسه وعيناه الجوزيتان اللون الكبيرتان الشاخصتان بيونا لم ترمش لحظة: أن الصبر مفتاح الفرج؛ إنها منْ سيرافقني حياتي القادمة، لا بأس لو تحملت الآن قليلاً.

بانفعال بدا على ملامح وجه يونا أجابت أختها سها:
- ولماذا هذا كله؟ على ماذا اللفّ والدوران، وخصوصًا هو يودُّ الاقتران بي كما فهمت، لابد أن أكون واضحة معه منذ البداية، هكذا خُلقتُ وسأموت وأنا على هذا الطبع... ربما تعتبرينه غباءً أو أي مسمى آخر، أعتبره أنا صفاءً، تصالحًا مع الذات... ثم هل نسيتِ ابن خالتك الذي فرضته عليَّ أختك ولاء؟

- صحيح، حد علمي لا توجد لغة مشتركه بينكما؟

- نعم، ذنبي هو أني أجبت ولاء حتى أخمد قلق خوفها من التقرب لسمير شقيق خطيبها قيس، الذي في الأساس أمقته لحديثه بفخر عن علاقاته الغرامية والاستهانة بمشاعر الفتيات... في الحفل الذي

أقيم بعد خطوبتكِ لهادي في البيت حينها كان باسم ابن خالتي جالسًا بجانب سمير قبالتي، مما أثار غضب أختنا ولاء، لمعرفتي السابقة بأنها تمقت أن يكون أخوان متزوجين من أختين ، لِما سيجلب في رأيها مشاكل لا عدَّ لها ولا حصر ، عندها سألتني باستفزاز لِما أنا جالسة قبالتهما ؟ كأني أقصد ذلك حسب قولها ، حينها استعرت جمرة الآه في قلبي وكادت تحرقني بلهيب شعور التفضيل أن أصبح بين الأخوين ، لكي لا يتفاقم هذا الشعور في داخلها ويقتلها، حتى قبل أن يبذر بصراحة كنت أتوخى منها فهم ماهية ما وراء ردي: لا رغبه عندي لهما، ابن خالتك كان على علاقة حب بهيفاء، تركها... لم تأذن أمه خالتك بهذه العلاقة لأنها عملت عملية في القلب عند الصغر ، لا أتصور حياتي مع شخص كان بينه وبين أحد أخواتي علاقة ما ، أما الثاني لا صورته ولا مضمونه يعجبني كي أطمئنها أكثر ولتصوري أنها فهمت! أكملت: إن فضلت، ستكون الأولوية لابن خالتي.

مفاجأتي التي عقدت لساني ، عندما سحبتني من فراشي في الصباح اليوم التالي باكرًا ، بإصرار وكأني سأحيي أحدهم من الموت! للنزول إلى المطبخ بعد أن أذنت لي بغسل وجهي على عجل، سرقة نظرة لوجه سها للتأكد من المتابعة ملاطفه أنك أعلم بطبعها... حيث كان باسم ينتظر بجلسة قلقة واضحة لناظره حيث ثنى قدمه اليسرى تحته متركزًا على الثانية، ساندًا يده اليمنى على طرف نهاية مائدة الفطور المستطيلة ذات الارتفاع الذي لا يتجاوز نصف متر عن الأرض على ما أظن أنك تذكريه، إنه وقت ليس

ببعيد استبدلت فيما بعد بمائدة اليوم مد بساطين بالألوان مختلفة صنعا يدويًا من الخوص على ما أعتقد...

بحب من يستذكر عزيزًا صححت سها: كانا من القماش المظفور.

واصلت يونا حديثها بأسى ذكرى جرحها العميق بعدم شعور أختها بها:

- توسط المائدة أبريق الشاي الأسود ورائحة الهيل الزكية تفوح منه، نزلت على عجل منْ ينتظر الفرج، أمرتني بالجلوس والإصغاء... بفضول الجاهل للمعرفة جلست وسمعت؛ أذنت ولاء لباسم بالكلام، نفذ بجلده من العقاب بإحدى أغاني المطربة "فايزة أحمد" لا أذكرها بالضبط، فحواها رسالة حب وهيام من عاشق ولهان قال أسمعي وستعرفين ما أريد قوله... سمعت وأسفت على رخص ثمني عند أختي من أمي وأبي... ولكن هذا لا يعطيني الحق بالارتباط بشخص آخر ما دمت صمت على هذا الموقف شئت أم أبيت...

- لماذا تجبري نفسك إذن ؟ كم مرة عُدتِ بعد لقائكِ به بحزن وأسى؟ كيف لكِ الاستمرار بلا سعادة وفرح، الزواج معناه: المشاركة، التفاهم، والتضحية من الطرفين.

- أعلم هذا وأكثر... أهون عليّ تحمل كل هذا العناء والأحزان على أن أجرح إنسانًا.

- منْ قال لكِ إنه سيكون سعيدًا بهذا؛ إن كان حقًا له مشاعر إنسان؟

ضاحكة بمكر سألت:

- هل هو من صنف البشر ؟ ألم تذكري كيف تخلى ببساطة عن حبه لهيفاء لمجرد أن أمه أمرت؟

- معكِ حق ، لكن صعب عليّ ذلك... ألم تلاحظي أننا أعطينا الموضوع أكثر من حقه؟ دعينا نفرح بهذه المناسبة ونوكل أمرنا لخالقنا في ما كتب هو لنا، أكيد أنه الأفضل؛ غامزة: يا حبيبتي.

ما إن أنهت يونا حديثها الجانبي مع أختها حتى أحمر وجهها خجلاً من نظرات هاني الشاخصة إليها بلهفة العاشق الولهان، ارتبكت مستغربه تركيزه بفضول معها، دغدغ مشاعرها إحساس ما، لم تستطع تمييزه أو الاهتداء إليه، خليط فرح، خوف، سعادة، توتر وقلق لحظات يصعب وصفها بالكلمات كمنْ يهز عبوة فيها ألوان يمزجها بقوة فيستحيل عليه بعدها تمييزها... ارتجفت أوصالها... رعبها إن يزداد حالها سوءًا ، تملصت منه مناجية أختها طلبًا للمساعدة:

- إني أستغرب فضوله!

باستغراب الجاهل:

- هه... منْ تقصدين؟

- ماذا دهاكِ؟ منْ يكون غيره؟

- لا... هل تعانين من الحمى؟ هل أنتِ على ما يرام؟

- أكيد أني على ما يرام... الظاهر أنه هو على غير ما يرام، لم ينزل نظره عني لحظه، مما يربكني، وتَّرني... لم أتعود أن أحدهم يركز معي هكذا.

- على مهلكِ كي أفهم منْ تقصدين؟

- منْ جعلك محاميته،

- لا ، إن حالتك مستعصية ، لابد من علاج ، منذ متى أعمل محامية؟

- ماذا جرى لكِ ؟ هل عندك مرض ألزهايمر (مرض فقدان الذاكرة) منْ يكون غير صاحبنا المغرم من أول نظرة؟!

- إني لا أفهم منك شيئًا ، مثل مسرحية تحت موسى الحلاق عندما ذهبت الحجة لا يحضرني اسمها الآن برسالة وصلتها من ابنها المغترب ليقرئها لها الحج راضي رضي الله عنه دنيا وآخرة ، يبدأها بزوزو دكم بصوصه... ويترجم لها أي كلام ، وفي الأخير يقول إنه لا يعرف فك الخط !

لم تمسك نفسها يونا من الضحك عاليًا واضعة يدها على فاهها ذي الأسنان البيضاء كاللؤلؤ:

- ومنْ فينا من وجهة نظرك الحاجة منوى ومنْ الحاج راضي؟

بادلتها الضحك وهي تسترجع المشهد التلفزيوني أمامها:

- لكِ حق الاختيار ، قولي بوضوح ما كنت تقصدين.

- هذا الذي يُدعى "هاني" ذو الرغبة العارمة بالتعرف عليَّ ، لم يخفض نظره عني لحظة.

- آها... فهمت الآن... مسكين الله يكون بعونه ، رغبته الجامحة بالتهامك واضحة بنظراته الثاقبة.

- أستحلفك أن تصمتي، أثرتي تقززي، أنظري كيف أقشعر بدني!

- يا محتالة، لماذا كنتِ تراقبينه؟ ألم تقولي أنه لا رغبه لديكِ به؟

- ليس بهذا المعنى، لكن هل تصدقين إن قلت لا أعرف؟ أرجوكِ انجديني، إنه يتقدم نحونا.

- يا جبانة لا تخافي، من الظاهر أنه لا يأكل البشر!

- شكري لك جزيل على المساعدة.

تمالكت نفسها وهمَّت واقفة بفستانها الفستقي الضاغط على جسمها من الأعلى والمطرز بالورود الوردية اللون البراقة من جميع نهاية أطرافه العلوية للصدر والضاغطة على زنديها تاركة كتفيها ناصعي البياض عاريين تدلى عليهما بعض خصلات شعرها الكستانئية المبرومة بعناية... منساب فستانها بعد خصرها الرفيع إلى تحت حد الركبتين بشكل انسيابي، وحذاؤها الوردي ذو الكعب المتوسط الارتفاع؛ لتأسر ببساطة جمالها ما تبقى له من شك بالتفكير، مما جعل هاني يهيم بها حد القاع والنخاع، وتأتي على ما تبقى له من صبر... خضع كالمخدر بفرح وهي تسحبه من معصمه معها إلى خارج قاعة الاحتفال... في الخارج أفلتت يده حرة مما أزعجه، رغبته كانت إن يستمر هكذا إلى ما شاء الله، دون مقدمات بدفعه واحدة:

- إني شبة مرتبطة بابن خالتي؛ ليس لدي الاستعداد في الخوض بعلاقة جديدة مكتوب لها الفشل.

نظرت إلى عينيه والدموع ترقرقت بهما فبدت وكأنها من زجاج،

تابعت بعطف ورقة:

- أنا آسفة لصراحتي، ولكن إن لم يكن لديك مانع يمكن أن نكون أصدقاء، أصدقاء فقط لا غير، كم أتوق لمثل هكذا علاقات.

برقت عيناه برجاء وصال جديد، زادت نبضات قلبه، انشرح داخله بعد أن كاد يفقد أخر بصيص نور... أخرج ورقة مطوية عدة طيات من جيب بنطاله الأسود المصنوع من القماش الذي لم تعر اهتمامًا لمعرفة ثمنه، وضغطها بيده بجرأة:

- أرجو أن يكون اتصال قريب بيننا.

بثقة:

- يمكن لك كتابة رقم هاتفنا إن أحببت.

رقص قلبه طربًا ببهجة غمرته:

- تمنيتُ إن أطلبه منكِ، ولكني خفتُ إن تفهميني خطأ.

بصدقها المعهود مستغربة:

- ألم نتفق قبل قليل أننا أصدقاء، إذن لمَ الخوف؟ لا تجعل الشك يراودني.

بخفة الساحر الماهر أخرج ورقةً وقلمًا واستعد للكتابة:

- هل لي به؟

• • • •

مرَّت أيام صعبة الاحتمال على يونا... في صراع الحوار بينها وأختها على جدال طال ، لواقع المرأة الشرقية ، فمن رأي أختها عدم الاستعجال بمبادرة الاتصال ؛ سيتصور حينها أنها سهلة المنال واسعة العلاقات بنسل الرجال مما يهدر كرامتها ويسئ لسمعتها بين الأقارب والأقران ؛،عليه ستجبر بالزواج دون اختيار بأيٍّ كان! يكون للحظ فيه آنذاك نصيب السباع... سخط يونا على مجتمع المظاهر زاد ، باستغراب وفضول الأطفال راحت تنشد بالعدل والتغيير ؛ وكأن أختها سها المسئولة عن هذا المصاب ، في رأيها وضوح الإنسان لا يرتبط بجنسه، لماذا وعلاما الخوف؟...

- أنا لا يمكن أن أكون غير أنا ، فمنْ أحب التقرب لي كما أنا عليه سيفهمني ، لا حاجة لي وله للفرِّ والكر ، سيكون لنا متسع من الوقت والصبر لهضم طباع بعض، وحل أي مشكلة تطفو بيننا ، وربما عمل شيء يفيدنا كما للمجتمع! وكما تعرفين أني لا أود ولا أنوي إقامة علاقة غرامية معه ، وكيف لي ذلك وأنا كما يسمى على علاقة بابن خالتي، هاني يعلم ذلك، ثم إني لا أعرف إلا اسمه الأول وشكله ، أستحلفك بكل معتقداتك أين الخطأ باتصالي به؟ إن فهمه على ما غير هو عليه سأكون فرحة لأني لم أضيع وقتي هباء ، لكن سعادتي أكبر لو فهمني كما أنا... إن رغبنا التغيير لابد أن يبدأ من داخلنا ، وإلا كيف نطالب بذلك دون اقتناع من أعماقنا ومازلنا مؤمنين به فلا تردد فيه ، حين يأتيني الشيء جاهزًا لا أحس متعته ولا قيمته... هل لي من سؤالك ببساطة: لماذا نتعلم ولِمَ؟

بضحكة ماكرة، ولتهرب من الجواب:

- إني متعبة، وغدًا عندنا دوام باكر، لنعمل هُدنة وقتية للغد، ما رأيك؟

- كما في كل مرة عند التملص من النقاش!... الله يكون بعون خطيبك هادي المسكين؟

- قصدك لله يكون في عوني عليه؟

- ماذا تعنين، هل هناك بينكما ثمة مشكلة؟

- لا، لا شيء، في الصباح رباح؛ كما يُقال.

• • • •

تعرَّف هادي على سها خلال رحلة أقامتها كليه التربية جامعة بغداد، وقتها كانت تدرس في السنة الثالثة بفرعها الكيميائي، جميلة العائلة هي، مدللة أمها لسمار بشرتها وعينيها غامقة الخضار كلون أوراق أشجار الصنوبر اليافعة، شعرها أسود متموج، جسمها ناعم، قصيرة الطول مقارنة بشقيقاتها، مما جعلها تخفي غرورها بتصنعها البساطة... هادي كان أبرش البشرة أحمر الشعر طوله مناسب لطولها، من عائلة تعتبر نفسها غنية ذات أنفة فارغة خداعة... في البدء كذب عليها بأنه كان أحد طلاب كلية الهندسة النووية في جامعة بغداد تم فصله بسبب كشف محاولته مساعدة زميل له في أحد الامتحانات، أُجبر على الالتحاق بالجيش

العراقي في حربه القائمة آنذاك ضد جارته إيران... فترة العلاقة بينهما استمرت شهورًا ، اكتشفت كذبته تلك بعد فترة وجيزة من خطوبتهما وحقيقة رسوبه مرتين في الامتحان الوزاري للسادس العلمي! حينها كان قرار جمهوري لا يعطي للطالب أكثر من فرصتين للنجاح ، ليُساق بعدها كالخِراف للحرب والذود عن الوطن في حرب لا يعلم سببها إلا الله! مما دعاها لرمي حلقة الخطوبة بوجهه؛ حينها أدعيت بخسة سبب فسخ الخطوبة مدارية عليه أمام أهلها وهي من أجلهم المتفانية المضحية ؛ أن أهله منعوها من دعوة عمتها لحضور حفل زواجها بسبب ماضيها المشين، عمتها التي تم الاعتداء عليها جنسيًا من قبل أحد عملائها الذي هو في الأساس جارها وزوج صديقتها بعد خداعها بالدخول إلى بيته بحجة أن زوجته بانتظارها، كان الرجل ضخمًا ، رغم ذلك حاولت المسكينة التملص من بين يديه ومقاومته بكل الطرق لإنقاذ نفسها من رغبته الحيوانية فلم تستطع، مما ترك أثرًا للكمات والجراح على وجهها الأبيض الجميل وجسدها الرفيع الممشوق، عندها أتت مستنجدة بأخيها والد سها لينصفها ، لم تلق منه إلا المهانة والضرب لِما جلبته لهم من عار ؛ خرجت من بيته يومها مكسورة خائبة الرجاء وملح دموعها المنهمرة يحرق جراح وجهها الحديثة لكن جرحها في صميم قلبها كان أعمق ؛ كانت تعمل من أجل سد رمق أولادها الذين تركهم أبوهم منذ صغرهم لها ورحل في مجتمعنا الشرقي العظيم!

بخبث أسرّت سها لأختها يونا واعترفت بالسبب الحقيقي لعلها تكشفه للجميع؛ طبيعة يونا الصادقة وقت ذاك اعتبرته سِرًّا يخص أختها لوحدها يجب عدم البوح به ولم تصرح لأحد عنه، دون قصد منها خيَّبت آمال سها باختيارها للإنسان الخطأ في نشر الخبر!

بعد توسلات أم هادي لخطيبة ابنها سها غير المنقطعة بنوح ونحيب لترحم أمه من العذاب وسيكون هذا جميلاً تحمله لها ما حييت لخوفها على ولدها من الإعدام بعد أن تخلّف عن الالتحاق في وحدات الجيش لإصابته بحالات هوس فجائية دعته في كثير من الأحيان الخروج من الدار بملابس النوم دون هدف... قبلت الخطيبة بعد أن أرضت غرورها في تعذيب عاشقها الولهان.

• • • •

مساء اليوم التالي بجلستهما المعتادة فوق السطح بعد أن فرشتا الأسِّرة لجميع أفراد العائلة استعدادًا لمنْ يرغب بالنوم، مكثتا سها ويونا على سرير الأخيرة ونسمات هواء الربيع العليلة تلفح وجهيهما وتبعث الأمل فيهما؛ سماء صافية نجومها متباعدة متناثرة، لم تنقطع أفواج أسراب الطيور الفرحة بالعودة إلى ديارها بعد غربة شتاء مضنية من تزين الأجواء لتكمل لوحة فنان مبدع بأشكالها المختلفة؛ تارةً على شكل سبعة حيث طائر يربط الخطين بغبطة وسرور، وتارةً أخرى مجموعة بموجات متناغمة

متناسقة الحركة وكأنها ترقص بالرجعة مبتهجة... رائحة ورد الرازقي والقرنفل العراقي الزكية تعبِّق المكان نافذة للأنوف دون استئذان؛ استنشقتا يونا وأختها الهواء بعمق مراتً ومرات، للتقليل من لهاثهما بعد صعودٍ بالفراش ونزولٍ لجلب ما تبقى عدة مرات، بدءًا بجلستهما على طرف السرير، ما أن أنتظم الشهيق عندهما حتى نزعت يونا نعليها عن قدميها وامتدت في أقصى حافة السرير فاسحةً مجالاً لأختها قُربها، نظرتا متأملتين حالمتين للسماء في ذات الوقت، بعد نفسٍ عميقٍ بلعت ريقها يونا:

- ما أعبق شذى الورود وما أصفى سماءنا اليوم؟ متى ننعم براحة البال... يا رب؟ دون صفارات الإنذار ودوي الانفجار منتصف الليل أو في غبش الفجر، ننام مطمئنين بلا صراخ هنا وهناك، لا حزن أو دمع على منْ يفارقنا مجبرًا دون خيار تاركًا ِعللاً في القلب وعذابًا بالأرواح، متى نفيق لنرى أنه كان مجرد كابوس قبض أرواحنا فترة وراح؟ مجبرين خُلقنا على هذه الأرض غير مخيرين فمن حقنا بأمر خالقنا أن نعيش الحياة، لا بأمر خائف جبان يرسم طريقها لنا بالأشواك، يسلب منا روحنا عنوةً كالأشباح.

انفجرت سها كالبركان:

- ما لي أراكِ ساخطة متذمرة ثائرة؟ هوني عليك وعليَّ قليلاً، فكما تعلمين أن صبري قليل... قولي ما دهاكِ يا بنت؟

بتعجب واستغراب:

- ألم تسمعي عن المدرسة الابتدائية "بلاط الشهداء" اليوم وما آل إليه وضع الأطفال الصغار عند الصباح ؟ ما أن دقَّ جرس الحصة الأولى حتى صاحت صفارات الإنذار ، لحقها دويٌّ هزَّ مدرستنا الثانوية وكادت تسقط جدرانها على رؤوسنا ، من ذعرنا خرجنا نتفقد أهلنا وجيراننا دون تردد أو خوف، فما قيمة الحياة بدونهم؟ لنصعق بمنظر المدرسة التي على بعد كيلو متر خلف دارنا وقد تحولت إلى كومة تراب، تناثرت حقائب الأولاد كأوصالهم بين الإنقاذ أجزاء الصاروخ طالت حتى البيوت المجاورة محتها من الجذور ، والدم السائل يجري كالأنهار من تحتها متحديًا معلنًا عن الجريمة الشنعاء... شهقت ببكائها، سالت دموعها الساخنة على خديها الورديين الطريين ، واسترسلت : مهما وصفت لا أستطيع نقل الصورة كما هي : أنين وصراخ وعويل ، تداخلت جميعها مع ما تولد في داخلنا من سخط وقهر وبالكاد مسكنا أنفسنا من الانهيار... بعد لحظة صمت غامزة بخبث أختها: وإلا لما كنت الآن معكِ.

بدهشة:

- كلا لم أسمع! كنت في حرم الجامعة، حمدًا لله لم يحصل هذا ، قدر الله وما شاء فعل... كيف تحملتِ كل هذا؟ لم أتصوركِ بهذه القوة والجرأة، لو كنتُ مكانكِ لما استطعت التحمل ولا حزرت حينها ما هو رد فعلي... ما دمنا نعيش سنرى الكثير ، ربما الأمرُّ منها؛ رائحة الموت تُشمُّ في كل مكان من العراق دون استثناء، أُخرِس الشعب بالقمع والبطش والخوف، أتانا بالحب والإصلاح

والإعمار ، وما إن وقفنا على أقدامنا حتى بترها من جذوعها ، هذا الذي يدعى صدام هو في الحقيقة هدام لأحلامنا ومستقبلنا ، يجب التخلص منه، عمره طويل الملعون؛ كم محاولة اغتيال له فشلت، في كل بيت جعل له عيونًا بالمال وبمغريات أو مسميات أخرى...

كادت آهاتها تفطر عظام صدرها:

- هيهات للعراق أن يقوم من كبوته ويعيد مكانته في العالم الذي تآمر علية من القريب قبل الغريب! خطط لدماره بخبث يفوق دهاء الشيطان، بغباء حاكمه المصاب بداء العظمة حقق مبتغاهم وشرع لهم أبواب العراق على مصراعيها، متى نشفى يا رب من هذا الطاعون اللعين؟ ألا يحق لشعبنا أن يعيش سنوات سلام ورخاء ؟ ينعم بخيراته التي تُنهب وتُسرق منه على مرأى ومسمع الجميع، ربما خطة الاحتلال الحديث أوسع وأشمل؛ مَنْ يدري؟ العلم عند خالقنا!...صدق الذي قال: (دود الخل منه وبي أي به)...

بضحكة استهزاء وقهر:

- إني أرى ينطبق هذا المثل (صرنا غنم والذيب - أي الذئب - يرعى بينا) علينا للأسف تمامًا...

بضحكة سخط وتمرد:

- ميع... ميع... ميع... ما رأيك هل أنفع؟ متى سآكل... ميع...

سها قاطعت أختها مستفسرة:

- بعيدًا عن هذا كله لأنه أصبح روتين حياتنا، ألم يتصل بك أحد من طرفه؟

بعد سكينة صمت:

- منْ تقصدين؟

- صاحبك المغرم الهيمان هاني؟

بتحدي:

- قررت، أنا اليوم... منْ سيتصل.

دون لحظة تفكير:

- هل جننتِ؟

- ربما، هل في حياتنا شيء طبيعي؟... ليكن ما يكون، قراري لا رجعة فيه.

- كيف ستفعلين ذلك والكل هنا؟

- كما كنت تفعلين أنت، عندما تكالمين رامز... بخبث: هل نسيتِ ذلك؟

زمت شفتيها بحزم مصطنع:

- لكن الموضوع هنا مختلف...

بكدرٍ بان بنبرة صوتها:

- ما وجه الاختلاف؟ ها... نعم، صحيح ما كان يربطك به علاقة حب، أمَّا علاقتي التي لم تُولد؛ وإن كُتب لها الحياة؛ فهي صداقة فقط، هذا ما تعنيه أليس كذلك؟

وهي تهم واقفة:

- افعلي ما يحلو لكِ أنتِ حرة.

- شكرًا على النصيحة... هكذا الموضوع إذن.

أعادت ترتيب فراشها وهي تمعمع كالخراف بعد أن سمعت ضحكات أختها وهي تنزل السلم، رفعت صوتها أكثر مع التغيير بنبرة الصوت : ميع... ميييع... مااع... لحقت بأختها معاكسة مشاغبة تقرصها بخفة من أماكن مختلفة في جسدها، والأخرى تحاول الفرار صارخة ضاحكة وهما تنزلان إلى الطابق الأرضي مما سبَّب إزعاجًا للباقين الجالسين يراقبون بشغف المسلسل المصري الذائع الصيت آنذاك "رأفت الهجان" في غرفة الجلوس، غمزت يونا أختها سها وهما بالممر الواسع الذي يفصل بين غرف الدار، سرتها في أذنها : الآن، إنها فرصتي... بهتت سها، تسارعت نبضات قلبها خوفًا على أختها وحاولت الإمساك بها... لكنها فلتت من يدها... أوقفها رنين الهاتف البرتقالي الموضوع على رفٍّ في فسحة لا بأس بها مربعة الشكل لها باب كبير من خشب الصاج بُني اللون وهو الباب الرئيسي لدخول الدار، وبابان أخريان واحد إلى يمينه يصل بغرفة الجلوس في أغلب الأحيان كان مفتوحًا يقابله مرآة جدارية تتوسط الجدار تحتها مغسلة متوسطة الحجم بيضاء ذات حنفية ذهبية اللون على شكل (ل) مقلوبة، أما الباب الموازي للباب الرئيسي يفضي لغرفة الضيوف، ولإسكات رنين الهاتف ردَّ عاطف على المتصل بسرعة كالبرق، تركه بعد لحظةٍ وصاح:

- يونا، إنها صديقتك سميرة.

(٥)

ما أن تُطفئ الأنوار ؛ تعمّ العتمة المكان وفي أخر لحظة للاستسلام تنبثق ومضة تنير الأكوان
بين خوف وفضول الإنسان من المجهول ، وحين يشعر بأنه يواجه امتحانًا بلا سابق إنذار ؛ تختلط عليه الأفكار ، عندها ربما يعجز عن التمييز ما بين الخطأ والصواب ، المغامرة تكون كبيرة ملغمة بالأخطار أن لم يتوخى الحذر ، الكون صندوق أسرار الكل مجبر على الغوص فيه بلا استثناء ، مشوارنا نسيره مغمضي العينين تحت مسميات تغضبنا مرة ، وترضينا مرة أخرى.

سرت قشعريرة في بدنها هزتها من الأعماق ، وقف شعر جسد يونا... نبشت في دفتر ذاكرتها المتقدة علّها تهتدي لصاحبتها المجهولة، لم تتمكن التبيان... منْ تكون تلك سميرة؟ زاد ارتباكها، سارت خطوات، رعشة من رهبة المخاطرة دقت ناقوس المجازفة مهدئة في سرها: شجاعة الإنسان في الأقدام للأمام، التردد يضيع متعة الحياة... بفضول الطفل للمعرفة خفايا لعبته الجديدة رفعت سماعة الهاتف:

- ألو... مرحبًا...

أتاها صوت رقيق ناعم متلعثمًا:

- مرحبًا... أنا سميرة.

خجلها من إحراجها لو أجابتها بأنها لا تعرفها جعلها تغرق بتفكير

عميق لصياغة جملة رقيقة، مما زادها توترًا، فلم تجد مخرجًا من هذا إلا بجُملة:

- أنا آسفة، ذاكرتي لم تسعفني... هل كنا مع بعض في الابتدائية؟

- لا... لم يحصل لي شرف التعرف من قبل عليكِ.

- كيف لي مساعدتك؟ قولي لا تخجلي إن كان بمقدوري ذلك ثقي لن أتأخر لحظة واحدة.

- يا بخت هاني بكِ...

ارتبكت بانفعال مداريه حرجها:

- ماذا تقصدين؟ عذرًا لم أفهم؟

- آسفة، نسيت أن أعرفكِ نفسي، صوتكِ فيه نبرة مميزة وأسلوبكِ في الحديث يأخذ المستمع إلى عالم ساحر غير موجود على الأرض... أنا سميرة أخت هاني الصغرى، عمري ثمانية عشر عامًا، مسكين أخي لم تنتهي توسلاته منذ أن عاد من حفلة الزوج تلك بأن أتصل بكِ كي يستطيع التحدث معكِ... بصراحة عنده حق أن يتوسل.

- لا أعرف كيف أجيبك، لقد أخجلتني، شكرًا على هذه الكلمات الرقيقة، هذا من ذوقك ورقتك... ألا ترين أنكِ بالغتي بوصفي، فأنا إنسان كباقي البشر في داخلي متناقضات أيضًا وإلا كنت ملاك في السماء، وفاتني التحدث إليك عزيزتي.

- الحديث معكِ ممتع وشيق؛ لكني لا أحب أن آخذ من وقتكما أكثر بصراحة كل الوقت وهو يحاول شد سماعة الهاتف من يدي...

سأحنُّ عليه من أجلكِ فقط، إنه معكِ.

- شكرًا لكِ على كل شيء

- ألو ، مساؤكِ سعيد

سرى في داخلها إحساسٌ بالراحة والسعادة لم تستطع شرحه ، تفسِّره كراحة العدَّاء بعد الفوز ، تمالكت نفسها:

- ألو ، مساؤكَ أجمل.

- إنه بالتأكيد سيكون أجمل مساء عشته وسأعيشه ، راحتي بسماع صوتكِ الرقيق تفوق الوصف ، لم يفارقني طيفك منذ ذلك الحين ، كنت أتكلم معكِ طول الوقت ، ألمْ تسمعيني؟

لم تتمالك نفسها وتمنعها من الضحك:

- على مهلكَ عليّ ، إني أتوق لسماع حديثك ، وكما اتفقنا سنكون أصدقاء ، أي تحكي كل ما في جُعبتكَ دون تقيد أو حرج ، أعدكَ أن أسمعكَ بتركيز وأحاول فهمكَ.

- ما شدني إليكِ جرأتك وأنتِ تسحبينني أمام الجميع دون حرج ، غالب الأحيان لا يراود تفكير الفتاة في مجتمعنا فعل هذا ، مما في تصورها يضع حولها علامات استفهام كثيرة... رأيت فيكِ من الوهلة الأولى التمرد على واقعكِ كفتاة ؛ وذلك طبعًا ضمن حدود المعقول ، تعرفين ماذا تريدين بالتحديد ، هذا ما أستنتجته..

وهو مستمتع بسماع أنفاسها عبر الهاتف استرسل:

- للتعرف أكثر ، أنا هاني وليد هاشم ، أدرس في جامعة بغداد المرحلة الثانية بفرعها الفيزيائي ، عمري ثلاث وعشرون سنة ،

عندما أراكِ سأفشي سر هذا التأخير... وبضحكة مزاح أكمل : غير متزوج... لحظة صمت وصفاء مع النفس : بصراحة كنتُ على علاقة بفتاة انتهت قبل شهر لأسباب سأشرحها لكِ فيما بعد. ماذا بعد ، دعيني أفكِر قليلاً ، لأبدأ بأخي الأكبر حازم ؛ متزوج عن علاقة حب دامية يطول سردها ، يسكن مع عائلته في بيت بنفس شارعنا يفصل البيتان ستة بيوت... أما أخويَّ لازم وحامد يكبرانني ، لم يتزوجا بعد ، إنهما في العسكرية يأتيان خمسة أيام في الشهر إن كانت ظروف الحرب هادئة ، في أكثر الأحيان تتضارب أجازتهما وإن صدف لقاؤهما فيكون لدقائق معدودة حتى لا تشبع نظرهما لبعض... بأسى : لابد من التحاق أحدهما بالفوج حتى يأتي الآخر في أجازته ، مشاعرنا خليط بين فرح وخوف ، رهبة وكدر... أما أصغر الأولاد بنان الذي يصغرني بأربعة أعوام فهو في الصف الرابع عام ، وأخر العنقود سميرة التي حدثتكِ ، من دلال أمها تأخرت بالمدرسة فهي في الصف الأول متوسط... أبي تركنا ورحل منذ كنت صغيرًا... بنبرة حزن علتها الآه : أخي ماهر أستشهد في الحرب قبل ثلاثة أعوام ترك بعده ولدين ؛ جميل وضياء ؛ ولم يرى ابنه الصغير ؛ وُلِد بعد وفاته بأيام ، يعيشان مع أمهما ميساء في غرفة أرضية في دارنا... هذه نبذه مختصره عن عائلتي ، أرجو أن لا أكون أطلتُ عليكِ الحديث؟

- نبذة حزينة ومؤثرة تتخللها أسئلة كثيرة تثير الفضول ، مؤسف حال العراقيين ، بلاد العلم والنور أصبحت محطة للغربان

وغنيمة للصقور.

ارتعشت أوصاله... قاطعها، وتغييرًا للموضوع:

- هل توقعتِ اتصالي؟

فهمت المقصود:

- هل تصدق لو قلت لكَ إني قررت الاتصال بك اليوم في هذه اللحظة؟ لماذا لم تتصل من قبل؟

- الله لا يوقعك بشدتي بعد إغراءات وتوسلات كثيرة حتى رق قلب سميرة عليَّ، كما تعلمين لا أستطيع الاتصال بكِ مباشرةً لابد لنا من وسيط.

- الله يكون معكَ في هذه المحنة.

صوت أمها يناديها، تسألها إن كانت هناك مشكلة، لأنها أطالت الحديث، أجابت يونا أمها بالنفي، وأنها على وشك إنهاء المكالمة.

- حاولي أنتِ الاتصال إذا سنحت لكِ الفرصة، وأنا من جانبي سأحاول أيضًا، أرجو أن لا تتأخري عليَّ. أتمنى لكِ ليلة سعيدة.

- أتمنى لك أجملها وأسعدها، مع السلامة.

تسارعت نبضات قلبها وخوفها من ملاحظة أحدهم، احمرار وجهها زاد إرباكها وتوترها مما دعاها للخروج من باب غرفة الضيوف ومن ثم إلى الممر الفاصل بين الغرف، فتحت الثلاجة الواقفة هناك خلف الغرفة إلى جانب بابها الأيسر وقريبة من طرفها الآخر من السلم، أخرجت قنينة ماء مثلجة ورشفت منها

بعطش لتخمد نار الحرج المتقدة في داخلها، دخلت غرفة الجلوس و شاركت العائلة مشاهدة التلفاز.

• • • •

ظُهر يوم صيفي بغدادي حار... عادت يونا إلى البيت مسرعة، هروبًا من حرارة الجو وشوقًا لسماع أخبار صديقها الغائب عن ناظرها؛ الحاضر في ذهنها طوال الوقت، رمت حقيبتها المدرسية على أريكة المطبخ متحررة من قيودها، صاحت ممازحة:

- يا أهل الدار أين أنتم؟ بالله عليكم حنوا على جائع عطشان أنهكه حر السماء وأشقاه طول الطريق.

لم يأتها رد... ساورها الشك، كيف يكون الباب مفتوحًا ولا أحد يجيب... لتطرد الخوف قبل أن يستعمرها رددت:

- ماما... ولاء...

بحكم عمل أختها ولاء معلمة في المدرسة الابتدائية كانت تعود في أغلب الأوقات قبلها للدار، وهي تدور باحثة عن أحدهم:

- عاطف... من منكم هنا؟

هدوء يسمع فيه رنة الإبرة إن وقعت على الأرض... صعدت درجتين لتكمل بحثها عن أحدهم في الطابق العلوي، سمعت من خلفها صرير الباب الحديدي للدار، بخوف رجعت أدراجها، لترى أمها وتعرف أنها قادمة من عند الجيران.

على عجل فتحت أمها ضرفة دولاب ملابسها وأخرجت علبة كارتون كبيرة في داخلها طقم صحون ابتاعته منذ فترة وهي تحمله على عجل:

- سأبيعه لجيراننا لأن ابنتهم على وشك الزواج... وهي تأخذ الباب بيدها زادت: ويلزمها... يمكنكِ الأكل، إنه جاهز على الطباخ.

- لا، ليس الآن، سأنتظر قليلاً.

على عجل بحثت عن قصاصة الورق التي دسَّها هاني بيدها يوم الزواج الذي التقاها فيه... أدارت قرص الأرقام... ردَّ صوت رجالي فيه عذوبة البلبل:

- ألو... تفضل.

- ألو... مرحبًا، هل يمكنني التحدث مع هاني من فضلك؟

بجد وعفوية:

- تفضلي أنا هو.

- ألم تعرفني؟

- بصراحة لستُ متأكدًا، فصوتكِ مميز، وحتى لا نضيع الوقت من أيدينا؛ هل أنتِ...؟

- نعم... حزرت، حمد لله وجدكَ؛ كيف حالك؟ ماذا تفعل؟ هل الوقت مناسب؟

- نعم، انتظرت مكالمتكِ كأني أعلم أنكِ ستتصلين، لم يمضِ على وصولي من الجامعة نصف ساعة أكلت على عجل، كنت أنوي

الرحيل للعمل بالمحل كما تعلمين ، لكن في داخلي شيء قربني من الهاتف وكبل قدمي بقربه.

دون سؤال أجابت:

- أنا الآن وحدي في الدار ، عدت للتو من المدرسة حتى أني بلباسها لم أغيره بعد... متى يكون أنسب وقت لأتصل بكَ؟

- بعد الساعة الثامنة ليلاً ، عندها أكون قد أنجزت كل واجباتي اليومية... ويكون هناك متسع من الوقت لهاني...

- اتفقنا إذًا ، ليكن اتصالنا بعد الثامنة... إن لزم الأمر تستطيع الاتصال بواسطة الوسيط.

- ماذا عن ابن خالتكِ، هل من جديد؟

- البارحة ظهرًا بعد انتهاء دوام المدرسة كان في انتظاري ، عاد من الجبهة قبل يومين في أجازته المعتادة ، انقبض قلبي عندما رأيته ، سرت معه على مضض أمتارًا عمقًا في شارع خلف المدرسة ، حاول ملامسة يدي ، قشعريرة سرت في جسدي وأصابني غثيان ، دون شعور مني خبأتها منه على عجل... شعر هو بذلك ؛ قوله إنه حكى عني لأحد الأصدقاء وبأنه أجابه أني لا أحبه زادني تقززًا منه ، كان بودي أن أقول له صديقكَ قد صدقكَ القول ، تجمدت الكلمات في فمي ، عقد لساني كأنه لم ينطق بحرف من قبل! عذابي أهون عليَّ من جرح مشاعره.

صوت كلماته بان ارتباكه:

- هل سألتِ نفسكِ إن كان هو فعلاً يحبك؟ ربما كل ما في الأمر

أنه وجدكِ الزوجة المثالية فقط.

- ربما ، العلم عند الرب ، أكثر ما أمقته نظرة الرجل للمرأة على أنها مستعبدة معللاً ذاك بأنها ضعيفة وجب حمايتها تحت مسمى أخت ، بنت ، حبيبه أو زوجة... فاح من حديثة هذا ، وما زاد الطين بله وأثار رعبي قوله أن أمه أودعت باسمه خمسة آلاف دينارًا في البنك تحسبًا للزمن ، باستطاعته أخذها للهرب من العراق إن رغبت ، سألته حينها وماذا عن أمك كيف لكَ خيانتها؟ تصور أجابني ببرود قاتل : لها الله... كيف أطمئن له وهو يفكر بهذا الشكل؟

بألم وحسرة :

- التمسي له العذر ، الموت رفيق دربه وأن أخطأه برفيق حرب فمن يعلم كم مرة سيخطئه؟

انفجرت ، كمن وغزتها إبرة :

- رياح وعواصف هوجاء لا تقلع أساس بناء ؛ الانتكاسات والانكسارات لا تغيِّر خيرًا في الأعماق ، بل تنوِّر الطريق... السعادة بالحياة في إسعاد من حولكَ ؛ آه... كعمق الزمن سألت : ألستَ معي بأن بشر هذا الزمان يميلون إلى الانحلال؟

بعد مدة انتظار لم يأتها جواب :

- هل ما زلتَ على الخط؟ ألو...

- ألو ، آسف ، عُمق الكلمات أخذني إلى متاهات الحياة ؛ إلى الدوافع والنزاعات بتاريخ الإنسان ، تباين فسلفته لفهم وتقييم

حقيقة الأشياء ؛ وجوابًا على سؤالك من وجهة نظري: الانحلال وليد الظروف المحيطة بالإنسان ذي النفس الضعيفة دون شك.

- هذا يعني أنكَ توافقني الرأي... في كثيرٍ من الأحيان يوهم المرء نفسه بصحة ما يفعله تحت ما يروق له من مسميات ، محاولاً إقناع داخله مع من حوله بذلك ، فما أن يعطي فرصة لنفسه للتفكير ويسكن بصدق مجردًا عائدًا محدثًا لذاته ساعات ربما أيام بما آل إليه وضعه دون رتوش وزيف ويغور باحثًا في قعر أعماقه بجدية عن جدوى ما عمله ؟ عندها ربما يبكي الحظ والأيام بندم معللاً أنها لعبة القدر ، مكتوب عليه لا يسعفه مفر ، ناكرًا أن يكون لعقله فيها أمر أو دخل ، متناسيًا بتعامي وإصرار كل تحدياته للشريعة والأعراف ، متجاهلاً مذللاً تلك الصعوبات حينها بأنه موجود على الأرض ، مخلوق مرة واحدة ، فلابد له أن يعيشها مجازفًا حتى لو بأغلى ما يملك وإن كان أهله!

- الحديث معكِ شيق ، عذب ، عميق ، تنقضي الساعة فيه وتمر كرمشه جفن العين ، متى تتكرمين بالعطف عليَّ بمقابلة؟

- بهذه السرعة؟

- ولمَ لا ؟ لماذا التأجيل إن لم يكن فيها ضرر ؟

- امنحني بعض الوقت للتفكير ، سوف أرد عليك في اتصالنا القادم ، إن أذن لنا الله.

- موافق بالتأكيد مازال تحمل في طياتها أمل...

- أتمنى لكَ نهارًا سعيدًا ورزقًا وفيرًا

بحنين ولوعة الفراق:

- نهاركِ أسعد... إلى اللقاء

• • • •

مواعيد اتصالات متباعدة ومتقاربة رافقتها نقاشات وطرح مواضيع دمجتهما ببعض ، أفكارهما تصب في نبع الحياة الصادقة...

أيقنت أنه لابد من مصارحة ابن خالتها ، وقتها جرحها بقسوة لتتأكد من أن قرارها كان صائبًا ؛ حين أخبرته برقة وحنان بأنهما لا ينفعان إلا أن يكونا أبناء خالة، أجابها ونبرة صوته لا تخلو من تهديد أنها ستندم، بعدها لا يفيدها حتى البكاء.

بعد إلحاح هاني المتكرر ونصيحة سها لأختها يونا التي كانت مواظبة على دروس تقوية كل يوم جمعه تخلت عن أحدها نظير لقائهما في مطعم صغير في منطقة المنصور وسط بغداد حيث كانت تذهب مع جارتها وصديقتها هدى لأخذ دروسهما هناك ، ودعتها بعد اتفاقهما على موعد العودة في المحطة العامة للحافلات التي تقلهما إلى الدار... كان صباح يوم ربيعي، الشمس نشرت فيه أشعتها على سماء بغداد بلطف وصفاء... مشت يونا بارتباك لأول لقاء بأرجل مرتعشة وفكر مشغول بكثير من الأمور ، بما تحاوره وما لا يجوز وواجب تأجيله سؤاله، عن هذا وأجابته هكذا إن أراد

أن يعرف ذاك... لم تشعر بحرارة الجو حينها سرت قشعريرة برد في أعماقها، خفقان قلبها وكأنه ينوي القفز من بين ضلوعها زادها توترًا وارتباكًا، ضغطت عليه بيد مرتجفة لتمنع خروجه، وقفت لحظات تنشقت الهواء بعمق كمن حُرم منه، لاح لها هاني من بعيد لملمت أحاسيسها المبعثرة، سارت كأنها شخص ثاني، مدَّت يدها مصافحة:

- صباح الخير.

شعر هاني بارتباكها من رعشة يدها:

- صباح النور، أين ترغبين الجلوس؟

- لا يهم المكان، المهم عندي التحدث إليكَ دون خوف و إزعاج.

دخلا أول مطعم بركن نهاية الشارع صادفهما استغلالاً للوقت، رغم صغر حجمه يبعث في النفس الراحة والطمأنينة، الطاولات موزعة بشكل متناسق توسطتها مزهرية فستقية اللون شفافة عبء الماء نصفها زرعت فيها جورية حمراء في بدء تفتحها، إلى جانبيها شمعة طويلة بلون الزهرية ثبتت على قاعة زجاجيه على شكل وردة... اختارا طاولة مطلة على الشارع، بعد أن سجل النادل طلبهما أوقد الشمعتان ليضفي دفئًا في الأرجاء... وضع هاني كراسة على الطاولة أمام يونا:

- هذه لوحات رسمتها فيما مضى، أتوق لمعرفة رأيكِ عند اتصالنا المقبل.

تناولتها بشغف، قلَّبتها على عجل، مدَّت يدها أمامه بدفتر صغير

غلفته بعناية واهتمام:
- شكرًا... هنا في هذا الدفتر ما كتبت من مقتطفات أرجو أن تروق لكَ.

شربا ما طلبا على مهل وكل منهما تحرقه كلمات مستعرة حبسها في جوفه، عيونهما باحت بتلك الأسرار وأكثر.. كسرت يونا طوق الصمت:

- هل أخوك لازم كان حاضرًا حفل ذاك الزواج يوم التقينا ؟ عندي شك في أن يكون هو من صددت حين استأذنني بكلمة على انفراد ، فاجئني بطلبه الجريء الذي جرحني في الأعماق ؛ بانتظاري بسيارته بعد انتهاء الدوام المدرسي ؛ دون سابق معرفه أو إنذار ، غريب طبع بعض الرجال الشرقيين يبيحون لنفسهم كل شيء دون تفكير ، حتى لو كان ذلك يمس مشاعر وأحاسيس غيرهم.

قاطعها وعلامات الاستغراب غيرَّت ملامحه:
- بماذا أجبتِ حينها؟ لِمَ لَمْ تخبريني وقتها؟

ضحكت فرحة برده على الفطرة دون كبح لما يجول في ذهنه:
- على مهلك عليّ ، حينها لم يسبق لنا التعارف وبعدها لم تسنح الفرصة لذلك.

أحمر وجهه خجلاً لرده المندفع الذي لا يتناسب وعلاقة الصداقة بينهما، حاول التبرير... قاطعته بمكر وذكاء:
- يا سيدي ، أجبته بأني غير مستعدة لهذا ولا يوجد من وجهة

نظري داعي له. بعد حديثي معك ، استغربت تصرفه ولم أفهم حينها سبب غضبه وحنقه مني ؛ إحساسي من نظراته كان يود حرقي، ذهب وهو يحدث نفسه بعصبيه واضحة وكلمات مبهمة.
بضحكة خبث: هل عرف يومها العودة للدار بمفرده؟

ضحك:

- فاتني أن أساله يومها.
- ها... ها... بالحق، هل تحب أن تكون زوجتكَ عاملة أم لا؟
- دون نقاش؛ ما دور الإنسان على الأرض بلا عمل؟
- أي نوع من العمل ؟ أم هنالكَ شروط وضوابط لكَ في هذا الموضوع؟
- العمل هو العمل، حيث يجد الإنسان فيه نفسه ومتعته.
- طمأنتني ؛ كرهي لنظرة مجتمعنا العراقي يقتلني في أعماقي بأن المرأة خُلقت للتربية فقط؛ داخل وخارج البيت لا تصلح لغيره! إنها المهنة الوحيدة التي ليس فيها مساس لشرفها!

بفرح مَنْ ظفر بما حلم دون تعب ؛ نظر بعمق في عينيها ليجد ما بحث عنه، سنحت الفرصة له الآن:

- ما دخلكِ بعمل زوجة المستقبل؟

بلعت ريقها ، تدفق الدم في شرايين وجهها فبان لونه خجلاً ، أخفضت رأسها حرجًا ، سرقت نظرة إلى ساعتها وهمَّت واقفة بتوتر:

- لابد من الرحيل وإلا تأخرت على صديقتي هدى.

دفع هاني للنادل الحساب على عجل... ودَّعها على أمل اللقاء... شعر بارتباكها من ارتجاف يدها وسرعة دقات نبضها رغمًا عنها.

أسبوع مضى وضربا موعدًا في الأسبوع الذي تلاه... ارتادا المطعم ذاته وجلسا على نفس الطاولة... اعترفا بحبهما لبعض، سقطت دموعها خوفًا، طمئنها ووعدها بأنه مستعد لفعل أي شيء لأجلها دون لحظة تفكير... تعاهدا على أن يبقيا معًا مهما حصل.

تكرر لقاؤهما الثالث وكان الأخير، فُتِح باب حرب لم تكن في الحسبان بعد أن رآهما أخوها عاطف في موقف الحافلات، نقل هذا إلى العائلة، بين شد وجذب قاومت يونا الحربين لوحدها، حرب الضغط عليها من أهلها في أن يتقدم لخطبتها، منعتها عزة نفسها من أن تطلب منه ذلك، إنها تمقت استغلال المواقف وجهة نظرها هنا أن إحساس الإنسان يدله لما يجب فعله وطالما وعد وجب العمل؛ لا حاجة له بالإشارة أو حتى الهمس، الرجل في بلدنا له حق اختيار القرار متى يتزوج ومِنْ مَنْ! وعلى الفتاة الانتظار متى يحسم القرار، يكفيها الطاعة والتنفيذ دون جدال!... وحرب صراعها مع نفسها في كشف حقيقة مشاعر تردد هاني عن الإقدام... ما حصل سنحت الفرصة للحديث هاتفيًا معه ونقلت معاناتها من ضغط أهلها في حساب خطواتها وربما أنفاسها ناهيك عن الشتم بأرذل الألفاظ، أنَّبها طالبًا منها إعطائه فرصة التفكير دون ضغط... جرحها رده بالصميم خذلها، أصابها في النخاع، أجابته: لك ما تريد، فمن الآن خذ وقتك الكافي في التفكير وتقرير... الله كتب لنا ما يريد مهما حاولنا التغيير فيه لا يفيد.

انقطعت المكالمات الهاتفية بينهما... ما زاد الطين باله خيانة أختها سها لها عندما طلبت من أمها الاتصال بأختها، عرض يونا كسلعة لها إن رغبت تزويجها لابنها ؛ عندها رفضت الخالة العرض وطمعت بزواجه من سها حبيبة أمها ورافعه مشعلها، ثارت يونا لرخصها عند أهلها وعند من أحبت ووهبت ثقتها، كرهت نفسها، تبعثرت قيمتها في داخلها، نهت على أوهام طموحها في تغير مجتمعها، حتى أنها فشلت في الانتحار، مما زاد حزنها ألمًا وإصرارًا حينها في عدم الاستمرار في الحياة.. وهي في الطوارئ سمعت أخاها زاهر؛ الذي يكبرها بعامين؛ يحدث أختيهما الأكبر في أمنيته بموتها وتهكمه بوقاحة بموتهما أيضًا رغم أنهما كانتا متزوجتان مستقرتان في بيت أزواجهما، بأنهن سبب جلب العار! وهو المقبل على الزواج من ابنة خالته نهال الوحيدة على ستة أولاد بعد أن حفت أقدام أخوتها بالبحث لها عن عريس، كان ابن خالتهم زاهر هدية الله لهم من السماء الذي كان يصغرها بعام رغم غلهم وحقدهم غير المبرر على أبناء خالتهم وانقطاع دام أعوامًا بين العائلتين!

• • • •

مرَّتْ الأيام أثقل من مرمر الجبال على يونا بالمستشفى التي حجزت فيها كي يتأكد الأطباء من سلامتها قبل الإذن لها بالمغادرة... رافقتها فيها أمها التي كانت أحد أسباب ذلك الانتحار!

لم تفهم يونا أمها ولم ترسو على عمق مشاعرها اتجاهها ، قسوة تفتت الحجر حين تقذفها بحمم ألفاظها المدمرة الحارقة، وحبًا كان يصلها مصطنعًا لا تحسه مهما حاولت الشعور به ، فضحتها بين المرضى ومرافقيهم، روت حكايتها على الملأ، تتفاخر بتخلفهم، تترك ابنتها تحترق بنارها، تلعن يوم ولدت بينهم، كانت تجيبها أمامهم كحكيم زمانه: (لا حُكم عليكَ غير ما تأمركَ به أخلاقكَ)

أتاها الفرج بعد طول صبر وحرج ، كي تنفذ من حصار أمها ووضعها تحت مجهرها حتى في نومها ؛ وجدت في الخارج ما يشدها ويشغل بالها كزواج ولدها زاهر ، الذي من أجله تخلت عن ذهبها للتجهيز لحفل زواجه وتأثيث غرفة أخواته الكبرى بعد استحواذه عليها ، كيف لا وهو الرجل ؟ تم ذلك بعد نجاتها وخروجها من المستشفى بشهر ونصف.

باءت محاولات كثيرة بالفشل من هاني للاتصال بيونا...

عصر يوم صيفي جميل كانت يونا قد فرغت للتو من غسل الممرات حول البيت لتنعم برائحة التراب حين تلامسه قطرات الماء التي تعشقها ، تذوب معها... تسرح إلى عالم الأرواح ؛ أزعجها حين أعادها إلى واقعها رنين الهاتف ، الذي كانت على مقربة منه:

- ألو، مساء الخير.

- مساء النور، هل لي محادثة يونا إن أمكن؟

- نعم، تفضلي أنا هي.

بتردد وحذر:
- هل حقًا أنت هي؟
بذكاء ومرح:
- أنتِ ميساء أليس كذلك؟
- نعم، كيف عرفتِ؟
- من ترددكِ وخوفكِ أن تبيحي بسركِ
- كيف حالكِ؟ سعدتُ بسماع صوتك
- شكرًا إني بخير حمدًا للرب، وأنا أسعد عزيزتي.
بلهفة طفل لحضن أمه وبنفس واحد:
- ألو، اشتقت لكِ كثيرًا يا ظالمة، كيف طاوعكِ قلبكِ أن تهجريني كل هذه الفترة؟ توسلتُ لميساء زوجة أخي المتوفى ماهر، أعتقد قد بات صوت أختي سميرة معروفًا للجميع.
بحزم القائد:
- ألم تطلب مني أنت ذلك؛ كي تأخذ قرارك دون ضغط؟
بنبرة حزن:
- أنا آسف، لم يكن قرارًا صائبًا، كل يوم لم أسمع صوتك فيه أوقعته من حسابات عمري، أرجوك لا تقسي، تأكدي لو بعدتِ عني سوف تحكمي عليّ بالعذاب طول العمر، قوتي في الحياة أستمدها منكِ فلا تسلبيها مني وتحمليني قليلاً.
ضحكت بصوت مرتفع لتخفي عذابًا قبع في صدرها وحرقها:
- وماذا عني؟ هل نسيت أني من فصيلة البشر؟.. في كل الأحوال

لم أكن بالدار ، رقدت بالمستشفى لبضعة أيام تحت مجهر أمي التي زادت همي بكلامها على العلن بأني طائشة متهورة ورأسي لا يوجد فيه عقل...

برهة صمت مسحت قطرات دمعها بصمت ، ضحكت مجددًا كي تمنعها أن تسيل، وتغييرًا لمجرى الحديث:

- ما المطلوب مني كي أريحك؟

ارتجف ، قشعريرة حزن سرت في بدنه ، صقع بما سمع لم يستوعبه، رغب في التوضيح:

- مهلكِ عليّ كي أفهم؛ ما سبب ذهابكِ للمستشفى؟

- حاولتُ الانتحار ، ليس بسببكَ فقط ، ولكني حزنت على نفسي بأني إنسانة في مجمع ينظر لها دائمًا بالدون... رفضت صرختُ من داخلي ؛ لم يفهموا ، هل أخطأتُ عندما حاولت اختيار من يشاركني باقي الحياة، وما الذي يشينهم بذلك، حتى يمارسوا كل أمراضهم عليّ؟

- أرجوكِ... لا تمزحي معي، أنا أضعف من تحمل هذا.

- متى مزحت معكَ في مواضيع كهذه؟

سقطت دموعه رغمًا عنه، وسمعت يونا نحيبه وشهقات بكائه:

- لِمَ كل هذا ؟ عمر الشقي باقي كما يقال ، فالحياة مخبئة لي في جعبتها الكثير تود أن تكرمني إياه! أنا قطة بسبع أرواح لا تخف عليّ، أمكَ داعية عليكَ لو ارتبطت بمجنونه مثلي نصيحتي لكَ اهرب قبل أن تتورط، فما زالت الفرصة سانحة صدقني.

وضحكت من قلبها بحزن.

- إن كان كل المجانين بهذا العقل والتفكير فدنيتنا تستحق العيش، هل تعرفي الصمغ المرسوم على علبته تمساح كم قوي ؟ التصقتُ معكِ به... نصيبكِ فلا مفر لكِ عني!

ضحكا بصدق معًا من عالمهما المجنون حد البكاء...

بعد مرور شهر ، تمت خطبتهما لبعض ، وما أن أنهت يونا أخر امتحان وزاري بيوم؛ أي بعد ثلاث شهور من خطوبتهما؛ تزوجا.

(٦)

عندما يموت الإحساس في الإنسان ، فإنه يدفن بالحياة

أبحرت يونا في عمق ذاكرتها ، سعيها مع أمها وأبيها منذ أن وطأت أقدامهم أرض ألمانيا...

فزعها في ذات يوم حين سمعت المناداة أقلقت نومها:

- يونا ، يونا... تكررت مرات ، بنبرة صوت غاضب هذه المرة أين أنتِ؟ كل هذا نوم؟ استيقظي، لابد لي من أخذ الدواء، بنبرة لا تخلو من غضب: يونا هيا انهضي...

صوت زجاج يتهشم...

بذعر فاقت يونا تسر نفسها: سترك يا رب!... نظرت إلى ساعتها اليدوية، الوقت مازال مبكرًا، فالساعة لم تتجاوز السادسة صباحًا بعد، قفزت من السرير على مضض، تناولت معطفها المعلق على شماعة الملابس في أقصى زاوية الغرفة خلف بابها من الداخل، ربطته كيفما أتفق، فتحت الباب وهي تجيب على المنادي تلافيًا لارتفاع الضوضاء وإزعاج نوم ابنيها الصغيرين في مثل هذا الوقت:

- نعم، إني قادمة... الرحمة حلوة ماذا هناك؟ هل قامت القيامة؟ يا الله ارحمنا برحمتك في هذا الصباح.

تخطت الممر الفاصل بين الغرف على عجل باتجاه غرفة الجلوس لتفاجأ بوالدها جالسًا بنشاط على الأريكة بقامته الممتلئة متوسطة الطول كأنها لرافع أثقال معتزل وعيناه قد اتسعتا فبرز صفار لونهما أكثر لتوحي بالسخط... يونا خبيرة في تهدئته، دنت منه وطبعت قبله ساخنة على خده الأبيض المحمر:

- صباحكَ ورد يا ورد، أين الحاجة أم نبيل؟... بابتسامة حب داعبته: هل مازالت هنا على قيد الحياة وأنتَ على هذا الحال؟ صارحني بالحقيقة... إنكَ مستعجل على تناول الفطور كي تدخن السجائر، مسكين، الإدمان عمل عمله؟

أتاها صوته من الخلف وهي تدخل المطبخ من غرفة الجلوس عبر الباب الفاصل بينهما الذي كان مفتوحًا بنبرة خجل:

- أنا، آسف لقد أقلقتكِ يا غاليتي.

- لا داعي للأسف فكل شيء على ما يرام

كانت أمها منهمكة في تجميع بقايا قطع الصحن المتناثرة على الأرض بصعوبة، كرشها المتدلي كان يعيقها عن الحركة بسهولة فعلا صوت شهيقها وزفيرها بغضب وهي تدمدم بكلمات كانت واضحة لابنتها:

- متى الله يعتقني منكَ؟ جعلتَ حياتي عذابًا مستمرًا وجحيمًا لا يطاق ليل نهار منذ ارتبطت بكَ...

هرعت يونا لمساعدتها كي تنتصب بقوامها الطويل المكتنز باللحم أجلستها على أحد كراسي طاولة الطعام أسود اللون ذات مسند

حوافه من الألمنيوم، ساحبه المكنسة والمجرفة من يديها:
- لِمَ هذا العناء كله؟ لو كنتِ انتظرتني قليلاً لما أحرقتِ أعصابكِ منذ بدء هذا الصباح، إنكَ يا أمي زرعتِ فينا تحمل مشقة الحياة دون احتياج؛ نعاركها، نغتصب منها أحلامنا عنوة فلا نحس متعتها بعد كدح، نهك وكد، غرزتِ بيننا حب التضحية ونكران الذات على حساب أنفسنا دون كلل وملل أو حتى قولة آه، كأننا جبال صخر، بتِ متأكدة ينكسر فأس الحياة لو حاول النحت فيها خوفكِ أدمى أرواحنا من ضغط قيوده علينا، جمرٌ في داخلنا يحرقنا ونبتسم كي لا نكدر منْ حولنا، هل هذا هو المتعة فيها أم شغالاً يشغلنا عنها... لنمضيها؟... أرجو أن تزيلي عن كاهلكِ عبء وزرها فلم يبقى قدر ما راح! إن منحتكِ خذي بمتعة وفرح لا تقولي ذاك وتلك أحق.

مسحت دموعها المتساقطة بكم معطف نومها:
- أوه يا أمي أتعبتِ نفسك وأتعبتنا، ألم يئن الأوان للراحة؟

نادت أبيها من غرفة الجلوس بعد إعدادها فطور شهي على المائدة سكبت الشاي الأسود في الأكواب، تصاعد البخار ليرطب الهواء وعبئ أنوفهم بعبق الهيل (الحبهان) أمنياتها من قلبها سبقت لسانها:
- شهيه طيبة.

أعادت أبريق الشاي على الطباخ، أخذت مكانها في الجلوس... تناولت الفطور معهما بعدم شهيه فلم تتعود تناوله في مثل هذا

الوقت الباكر :

- أرجو منكما بعد تناول الفطور التجهيز للذهاب لدائرة اللجوء لنأخذ الإقامة لكما بعد عودتي من إيصال سامر إلى المدرسة.

باشمئزاز ونبرة أمر :

- انتبه ماذا فعلت؟... مدت أم نبيل يدها بمنديل ورقي : خذ ونظف ما اتسخ، منظرك مشمئز والأكل معك مقزز!

- يا بنت الكلب ، الحياة كلها معكِ مقفرة مملة... بتوتر منْ أحس بمهانة : كم مرة أسال نفسي ما الذي أجبرني على الاستمرار معكِ؟

بعد أن بللت قطعة قماش المسح وهي تنظف أمام أبيها قالت لتطفئ النار قبل استعارها بضحكة مكر :

- عمي القلب وما يهوى ؛ الحب أعمى كما يقال ، هل نسيت كيف كانت بالمروحة اليدوية تبعد تيار الهواء الحار عنكَ وأنتَ نائم عند زيارتكَ لخالكَ والدها؟ أم أنكَ لم تعشقها وتستقتل من أجلها؟

هدأته كلمات ابنته ، أرجعته لشبابه وقلعة الصالح حيث كان أهلها يسكنون ولهم فيها بساتين تمر جنوب العراق ، يذهب لزيارتهم من أجل ابنتهم البكر ؛ مدللة أبيها ، مما أعطاها شخصيه مركبة بين جمال وأنوثة تفقع العيون وقوة وصلابة الرجال.

كي لا يخرج هو من الحرب مهزومًا :

- ساعة سوداء يوم سلبت أمكِ عقلي وقلبي مني.

- سلبتهما رغمًا عنك بلا عودة، وإلا كيف أكون أنا هنا؟

ضحك الجميع ، متناسين ما جرى من منغصات لبداية يومهم المثلج في ألمانيا.

انطلقوا متجهين إلى دائرة اللجوء حيث تُجدد الإقامة شهريًا لوالديها على ورقة بلاستيكيه بُنية اللون تصبح عند طيها بحجم كف اليد تحمل صورة الشخص في الأعلى تحتها الاسم، العمر ، لون العيون ، الطول ، مدينة الولادة ومعلومات على هذا النحو ، وفي أسفلها ختم الدائرة وتاريخه.

دخلوا المبنى بشق الأنفس مع عربة الأطفال، هرج ومرج طالبي اللجوء من مختلف الأقطار التي كتب لها العذاب في الأرض، عند باب الغرفة المعهودة تجمهر الناس والتدافع بينهم كان يخيف من يقترب منهم، حاولت أمها التدافع معهم لتحظى بمكان، منعتها يونا وهي تشير إلى كرسي فارغ جنب أبيها:

- اجلسي هنا من فضلك، سأتدبر الأمر بنفسي... ضغطت يد أمها على عربة الصغير نوح: أرجو أن لا تتحركا من مكانكما لحين عودتي.

غابت عنهم دقائق ، عادت بصحبة رجل ضخم حمرة دم شرايين خديه بارزة من تحت بشرته البيضاء لشفافيتها ، استأذنها للحظات متجهًا نحو الغرفة المتزاحم عند بابها ، فسح له الجميع المجال للدخول ، كيف لا وهو رجل الشرطة المسئول عن النظام؟ تمكن من شق طريقه دون أي جهد أو عناء ، طرق الباب ودخل، خرج بعد لحظات مع المراجع الذي كان هناك بعد انهاء إجراءاته، طلب

الشرطي من المتجمهرين فسح المجال ليونا وأهلها، دخلوا بسلاسة الماء الجاري بين الصخور ، سخط الواقفين كان واضحًا... حصول والديها على ختم لستة شهور جديدة كان استثناء ؛ أقنعت يونا بمشقة الموظف المسئول باستعطاف، شرحت ظروفها بأنها أم لولدين صغيرين أحدهما بالمدرسة في صفها الأول، ولابد من جلبه منها في مواعيد محددة ، سكنها ليس قريبًا وتعذر التنقل بسرعة مع والديها لكبر سنهما ، لذا رجته بتوسل ورأفة بهما أن يمنحهما أطول فترة إقامة ممكنة... صرامة وتشدد موظفي الدولة في تطبيق القانون لا نقاش فيه ، لكن استخدامهم روح القانون عندما يتعلق الأمر بطفل أو إنسان مسن لا يعرف الحدود!.

حالة أمها المرضية أعاقتها عن متابعة حالة زوجها المستوجبة العلاج ليل نهار ، مما استدعاهما هي وأخيها عاطف بمساعدة زوجته كرستينا بحجز غرفة منفردة له في دار المسنين، واستئجار شقه بغرفة واحدة مع منافعها لأمهما.

• • • •

صباح يوم مزدحم الشوارع بالسيارات وأناس مسارعة الخطى للعمل على أرصفتها، تفاجئ هاني وزوجته بموقف جديد وفريد من نوعه لم يخطر على بالهما ولا حتى في الخيال، بكرستينا تهز بقوة الدعامة الخلفية للسيارة التي سبقتهم عندما ترجلوا من السيارة بعد سماعهم صوت ارتطام جاء خفيفًا جدًا عند تحول إشارة

المرور إلى الأحمر ، ضربات قلبهما تسارعت خوفًا أن تنتزع الدعامة بيدها لقدمها وهي تحدِّث صاحبيها:

- هل هناك مشكلة؟

- لا ، يبدو كل شيء على ما يرام.

أغضب يونا تصرف زوجة أخيها هذا:

- إنهم يقولون كل شيء على ما يرام ، أرجو أن تتركي الدعامة وشأنها... وتمتمت بالعربية: أستغفرك يا ربي ، ما هذه البلوى؟

كظما غيظهما دون تفسير أو تعليل لموقف كرستينا ، وعادا أدراجهما قافلين إلى هدفهما... كانوا في طريقهما لنقل أم نبيل بسيارة هاني الخصوصي والذي غاب عن عمله بأجازة غير مدفوعة الأجر ، مع ما تبقى لها من ذكريات العراق في حقيبة سفرها التي صاحبتها في رحلتها رصت فيها ملابسها وصور للأهل والأحباب وبعض من الأغراض التي لم تفرط بها.

(٧)

إن تأثر الإنسان في الحياة كموج البحر ، منها ما هو صغير أو ضعيف لا ذكر له يتلاشى عند ارتطامه ببعض ، هناك الأقوى يقاوم حتى الساحل فيصبح زبدًا متطاير ، ومنه الهائج الثائر الذي يحمل معه التغير بملامح الأرض حينها ربما يدمر ويعصف بوجه كل ما يعترضه بتحدي لتبدأ بعد هدوء هياجه حياة جديدة متآلفا معه.

استغرقت أم نبيل وقتًا غير قليل للتأقلم مع وضعها الجديد ؛ في البدء كل شيء كان لها غريبًا ، شهور معدودة بشطارتها المعهودة اندمجت بل انصهرت بواقعها المحتوم حيث كانت قبل أن تخرج من شقتها تتأكد من وجود عنوانها الذي كتبته ابنتها يونا على قصاصة ورق ، على ظهرها خارطة طريقها إلى السوق التي رسمتها هي فيما بعد بخط مخربش ، دعواتها من قلبها المرتجف الخائف بالعود بسلام وأن لا يتكرر موقفها المؤلم الذي كلما تذكرته يغزو مقلتها البكاء شفقة على حالها برثاء في أول محاولة استطلاع ، فما أن ابتعدت شارعين عن شقتها حتى تاهت في الشوارع والبنايات المتشابهة ، بعد جهدٍ مضني والدوران في نفس المكان ، محاولات ذكاء منها ، وضعت علامة في بداية أحد الشوارع على أمل أن لا تعود له ثانية ، تخطو مسرعة يغمر تفكيرها وجسدها سعادة الظفر ، تنهار ما أن ترى علامتها شاخصة

أمام عينيها بتحدي بعد سيرٍ بدا لها أميال ، عادت الكره مرات ومرات ، تسلل الجوع إلى معدتها ، بدأت شيئًا فشيء بالانهيار فالبكاء ونحيب كطفل صغير فارق أمه عنوةً وإجبارًا ، جلست على رصيف أحد الشوارع تنورتها العريضة فرشت عليه مخبئة تحتها رجلاها المتورمتان، تجهمت ملامح وجهها، اعتلاه الهم والعذاب، لم تعد تستطع حمل جاكيتها السميك فمال إلى جنب ، لم ينقطع بكاؤها فكانت تثير عطف المارة محاولين مساعدتها دون جدوى، كيف يفهم أبكم أصم؟ بمنظرها هذا تترك عنده انطباع المتسولة، لم يترددوا في مد أياديهم على محفظاتهم ويجودوا عليها ببعض من النقود كنوع من المساعدة مما كان يزيد انزعاجها ، استمرت ساعات طوال على هذا الحال حتى تذكرت قصاصة الورق التي كتبت ابنتها فيها العنوان ، أخرجتها بيد مرتعشة لأحدهم برجاء ، عادت لها ثقتها بفرحة الانتصار ، منذ ذلك الوقت لم تجرؤ على الخروج بدونها رافقتها كظلها... زال شعور الانبهار بالنظام أصبح روتينًا مملاً ، وحدتها في غربتها بعد ذاك البيت الكبير العامر بلمّة الأولاد، الأحفاد والأحباب، بللت دموعها وسادتها كل ليلة، باتت تشكي ضعف البصر من الحزن والقهر ، كان لابد من إجراء عملية جراحية لإزالة الماء الأزرق من عينيها ، قضت أسبوعًا في المستشفى وهي لا تفقه حرفًا من لغتهم إلا كلمة "أسن" كما كانت تلفظها (بمعنى أكل)، لازمها الضغط والسكر ، تواصلها مع ابنتيها في العراق كان همها الوحيد كيف السبيل لخروجهما والوصول بهما لبر الأمان مع أولادهما ، كان هذا البديل عن

شعورها بالغربة، وعدًا بان غرفتها في سكنهم إجبار واجب التنفيذ دون همس أو نقاش... هل يمكن الاستغناء عن أمٍّ معطاء؟

سخطهما كان غير مبرر على أخوتهما الذين اتخذوا الغربة وطنًا لهم، لا يخفى في كثيرًا من الأحيان تهكمًا باحتقار، كانتا دائمتا الترديد على مسامعهم: أن المال أصبح أهم ما في الكون، وذهولهما من نسيان الإنسان الأصول والأعراف.

انصب اهتمام أم نبيل على تجميع المال لتهريب بنتيها والعيش في تقشف وعوز، وكثيرًا ما كانت تلجأ إلى ولدها عاطف لتقضية بعض الوقت عندهم لتفرَّ بعد يوم أو يومين أن استحملت خبث وتقنط كرستينا معها، إلى بيت ابنتها يونا لتمكث عندها أسبوعًا أو أسبوعين، تذهب لاستلام راتبها التقاعدي ثم تقفل أدراجها مجددًا إلى منْ يلقاها بالأحضان ابنتها وزوجها وولديهما دون لِمَ ولماذا؟

تصرفاتها مع ابنتها لا يمكن أدراجها تحت أي المسميات، كانت تثير الشك والريبة عند ابنتها، وكم مرة تساقطت دموعها وهي تسأل نفسها: ما مقدار حب أمها لها؟ لطالما حاولت فك عقدة ذلك اللغز دون طائل، وقفت حائرة تجاه تناقض مشاعر أمها، فهي رقيقة بكاء طفلاً يبكيها، صلدة متجلدة تهز جبالاً إن لزم الأمر... جليٌّ لمن يعاشر أم نبيل أن حبها للذكور يفوق حبها للإناث كغالب الأمهات الشرقيات، عكس بعضهن اللواتي يربينَّ الفتاة في مجتمعاتنا الشرقية مسلوبة الحرية... كم تمنت يونا؛ بل تحسرت؛ أن تكون أمها من تلك الأمهات! هل هذا وراثة في دم الإنسان؟ أم

أنه تعودٌ نكتسبه من خبرتنا الفردية ، لاسيما المجتمع الخارجي يطبعها فينا دون إرادة؟ أم نوع من الثورات على الواقع ، أو عدم قبول مواجهة الذات؟ فلا ترغب رؤية نفسها متمثلة بابنتها أمامها ، فتنفر منها حتى لو تقتلها معنويًا دون قصد!

طالما كانت تأخذ جانب هاني زوج ابنتها يونا عند حدوث خلاف ما بينهما دون معرفة مسبقة لسببه ، مما كان يدمي مشاعر يونا موقف أمها ذاك ، قناعتها المطلقة بأن مشاركة المشاعر تُحس لا تُطلب ، ولو طُلبت فقدت معناها ، قيمتها ومتعتها... أجهدها ، بل أتعبها التفكير في التغير ما في داخلها دون جدوى ، طبعها هذا ولدت به وتأصل فيها بمرور سنين عمرها كامتداد وثبات جذور الأشجار المعمرة العملاقة بالأرض.

تعودت يونا معالجة جروحها الدامية دائمًا بنفسها ، لم يهدأ داخلها غليان وفورًا تبقى كجمرة متقدة تحرق نفسها وكل من يلامسها ، هدنتها أولاً مع نفسها ومن ثم مع الآخرين ، فلابد لها من إيجاد ذريعة تقنعها تبرر فيها سلوك المقربين إن أخطأوا بحقها ، في أغلب الأحيان توهم نفسها عن دراية بذلك لتستمر مسيرة حياتها معهم!

مازال عالقًا في ذاكرتها يوم عودتها دون ولدها الثاني نوح من المستشفى بعد ولادته بعملية قيصرية في نهاية شهره الثامن مما اضطرهم للاحتفاظ به هناك في الحضانات ، ما أن وطأت قدمها عتبة شقتها لتفاجئ باستعداد أمها للرحيل وكأنها حسبت دقائق

صعودهم بالثانية بعد مشاهدتها لها مع هاني زوجها وولدهما البكر سامر من شباك الغرفة المطلة على كراج السيارات الخارجي المخصص لهم، لم تكلف نفسها بالسؤال عن حفيدها الجديد الذي لم تره برفقتهم! فاستعاذت يونا بالله وسألتها مستفسرة:

- لم تستطيعي البقاء ساعة أخرى بعد إقامتك مع هاني وتحملك سامر في نهاية سنة عمره الخامسة طيلة عشرة أيام فترة مكوثي في المستشفى؟... استطردت بقهر واضح على وجهها ولا يخفى في نبرة صوتها، بحرقة من داخلها وبطريقتها غير المباشرة عند طلبها كي لا تحرج من أمامها: هل لكِ من يبكي في الدار؟

جاءها صوت أمها مثلجًا باردًا كالثلج المتساقط يومها:

- إني على موعد اتصال هاتفي بأختيكِ من العراق.

كانت على يقين لم تسمع رد:

- متى تم هذا الموعد؟

كأنها لم تسمع هذا ليس بجديد، غادرتها رغم علمها المسبق بأن هاني سيترك بنتها تعاني آلامها مع نفسها كما في كل مرة عند حاجتها له ولا تجده، بعد تأكيد موعد لإجراء فحوصات لازمة قبل يوم لعملية لا تسترعي الاستعجال، موقفه هذا لا يقل غرابة عن موقف أمها بالنسبة لها! ليبدو كأنهما كانا متفقين، فردَّت مع نفسها بكدر: إن حضرت الشياطين ذهبت الملائكة!

عزَّ النوم ليلتها مرافقتها، قلقها على ولدها ذي العشرة أيام، وسؤال نفسها إلحاحًا بتكرار لعلها تجد عذرًا لسبب اختيار زوجها

موعدًا كهذا ؟ هل هو هروب من المسؤولية كعادته أم خوف من المواجه الحتمية لفعلته الشنيعة التي لا تغتفر حين بارحها في المستشفى عند الرابعة فجرًا من ذلك اليوم عندما داهمتها طلقات الولادة، الدكتور المختص أكد لهما ساعتها أن الوقت لم يحن بعد فالجنين في نهاية شهره الثامن؟ توارى عن نظرها كالبرق وكمن ينزل عبئًا خنقه، لم يسأل عنها إلا في ظهر اليوم التالي، تركها تعاني مرارة أمرَّين؛ تحملها تلك الأوجاع بأسى لجور الحياة عليها بوحدتها ، والآخر نقل ابنها ذلك اليوم لمستشفى أخرى وهي مازالت تحت تأثير بنج العملية القيصرية، دون رؤيته والاطمئنان عليه والتأكد أنه مازال يتنفس الهواء! لمعرفته بها فضَّل استدراج عطفها عليه، تقلبت على جنبيها، غمض عينيها لم يوقف تفكيرها، توسلت بالليل أن ينجلي فهزأ بها مطولاً ، جلست على فراشها ثم تمددت لمرات... أتاها الفرج بعد عناء ، صباحًا تأملت فيه خيرًا من المساء ، هيهات للمعذب أن يعيش بهناء ، في الصباح الباكر رافقها مغص شديد كاد يقطع جوف بطنها، ومن خوفها على ولدها سامر عانت بصمت... تحملها طال ساعات، لكن الله رحيم بخلقه ولا ينسى محبيه ، قُرع جرس الباب ، لتطلَّ من خلفه جارتها الفلسطينية حنين فأسرعت هي بدورها بعد علمها بحال جارتها لاستدعاء زوجها طبيب النساء والذي كان يومها يتمتع بأجازة عمل في البيت، بعد فحصه لها حقنها بالوريد حقنة ضد الآلام... شكرها رافقه البكاء للملاك المبعوث من الله؛ ما أن تركتها حنين حتى رنَّ الهاتف ليبلغوها وجوب جلب ولدها من المستشفى، وهذه

كانت الطامة الكبرى! الجو بارد مثلج صغيرها بحجمه الذي لم يتجاوز الكيلو وسبعمائة غرام لا يتحمله في المواصلات العادية حيث سكنهم يبعد قُرابة الساعة عن المستشفى وانشغال بالها إلى ما آلت له عملية زوجها رغم كل الذي ما هي فيه دغدغ شيمتها فحتم عليها زيارته مع ولدهما سامر ، تحملها آلامها من أجل ولدها هون عليها مشقة الطريق للوصول لزوجها الخارج للتو من صالة العمليات كي تجنبه شعورها بالوحدة الذي شعرته مرات بدونه من قبل! قبول أخيها عاطف بعد توسلاتها التي لم يسبقها أو يتبعها رجاء أن يجلبها مع ولديها من المستشفى بسيارته عند وقت حددته هي بعد حسابها لكل حساب فلا يخفى عليه ليس بحوزتها إجازة سياقه ، فالأولوية في عائلتنا الشرقية مهما تحضرت وتقدمت للرجل! حتى لو كان منْ يصرف عليها هي المرأة!

أخيرًا لتصالح يونا نفسها على أمها استسلمت لفكرة لا جدال في أن كل أم تحب أولادها لكن بطريقه مختلفة ، فغريزة الأمومة خلقها الله مع الأنثى حتى عند الحيوانات منذ صرخة تحديها الأولى في الوجود ، لا ضير قد يكون حب بنسب متفاوتة ، لكن بعض الأحيان الطريقة تكون مدمرة وربما قاتلة!

• • • •

انشغال يونا برعاية مولودها نوح ، جعلها تنحي نفسها وكل ما يحيطها جانبًا... انغمست في خدمته ليل نهار ، أضاف زوجها عبئًا

أخر عليها عند خروجه من المستشفى بعد أربعة أيام ، حيث أستأصل الأطباء عظمًا دائريًا صغيرا من عظم حوضه وزراعته في فجوة بأحد عظام رسخ يده اليمنى ، فجبيرة بالجبس ، وحددت حركته لتألمه من خاصرته ، مما وجب رقاده في السرير لأيام وأسابيع، أيامها عدت ثقيلة رتيبة، فرحتها وهي ترى وليدها ينمو ، يكبر ؛ تمدها بالتحمل أكثر فخرًا بأنها إنسانة، شقاها وشجنها كان يزيدها قوة، يصلب عودها الأخضر الغض، روحها المرحة كانت تضيف سعادة لمن يعاشرها فهي لا تشكو لغير خالقها ، تخفف الكدر عن من حولها ، كثيرًا ما كانت محط حسدهم وغيرتهم كيف لها إخفاء كل هذا الوجع دون تأوه أو آه، ما أغربنا نحن البشر! إن حمل أحدنا فوق طاقته بتجلد وصبر قلنا: متكبر مغرور ، وإن تفوه بما يضنيه قلنا: عديم النفع دائم الشكوى يموت بالشجن.

بعد فك جبس يد زوج يونا بأسبوع يكون الأسبوع الثالث من خروجه للبيت شارف على الانتهاء ؛ عصر يوم مشمس لبداية فصل الربيع أذابت فيه شمسه الثلوج من على أوراق الأشجار العالية متساقطة بين الفينة والأخرى لتخفف عنها عبء تحمله ، من على إسفلت الشوارع وأرصفتها ، فتلألأت تحت أشعة قرصها الذهبي من نظافتها ؛ أرضعت يونا وليدها وآوته في سريره ، دعواتها بهمس له بالصحة وطول العمر لم تنقطع مع سيرها على مهل وبطء إلى شباك الغرفة ، سهت بفكرها مع قطرات الماء المتساقطة من أعالي المتتابعة ملتحقة برفيقاتها في الأرض لتنساق معها بخط رفيع إلى المجرى، محاكية نفسها: مهما علت الحياة بنا

تنصلنا عن جذورنا عدنا مرغمين إليها كحبات الماء المتساقطة!

رنين جرس الهاتف بعد أن كادت نسيان رناته، أعادتها لواقعها، هرعت لرفع سماعته فزعة:

- ألو... مساء الخير.

صوت أمها يشجو فرحًا:

- بشارة تستاهل المليون.

وجوم أمها طول هذه الفترة وعودتها بهذا الاندفاع البهيج أثار فضولها:

- يا ستي الله يفرَّح قلبكِ دائمًا، وتجلبي لنا أخباركِ المفرحة، ولكن ما الذي أفرحكِ كل هذا القدر؟

- قبل قليل اتصلت أختكِ وفاء، سوف تغادر هي وبناتها الثلاث العراق الليلة مع محرم؛ اتفقت أختاكِ معه مقابل مساعدته في مصاريف خروجه هو أيضًا.

- حمدًا لله خبر حلو، إلى أين وجهتهم؟ لكن مهلاً منْ الذي سيتحمل تلك المصاريف؟ حد علمي وفاء لا تملك ما يسد رمقها وبناتها في بلاد النهرين، ولولا مساعدتنا الشهرية وإيواء أختها سها في بغداد لهن؛ لدارت تستجدي في الطرقات بعد انفصالها عن زوجها في مدينة بعقوبة وهروبهن منه بثيابهن التي عليهن، كيف لها تحمل تكاليف السفر إذًا وأنتِ أعلم بها؟

نبرة صوتها غلبها الحدة والانفعال:

- ربي يقدرني وأساعدهن حتى لو بعت الثياب التي عليّ،

استهجنت: كوني مطمئنة سوف لن يسأل أحد هاني عن مال.

لحظة سكون بلعت يونا بها غيظها:

- ما دخل هاني في نقاشنا، وحالي لا يخفى عليكِ؟ أم عندكِ شك في أمنيتي للكل بالخير؟ بعض الأمور يجب أن تُحسم بالعقل لا بالعاطفة وإلا ستكون عواقبها وخيمة، لنفرض أنك وفرتِ كل سنت من راتبكِ التقاعدي منذ وصولكِ لحد الآن، بالإضافة لما تبقى عندكِ من بيع أخر أملاككما أنتِ وأبي في العراق بعد تهريبكما وكل منْ كان معكم، إنه لا يغطي نصف التكاليف، كيف سيكون حالهن أن انقطعت بهن السُّبل في بلد غريب؟ ما سيئول إليه مصير بناتها الصغيرات وأكبرهن عمرها ثماني سنوات؟ المسألة ليست تصفيقًا وتهليلاً، إنها مصير جيل لا يخلو من الضياع... ثم متى كنتِ تسمحين لإحدانا التحدث مع غريب؟ نهجكِ اليوم أراه قد تغير، بل تقبلين مرافقتها دربها لمدة قد تطول شهورًا؟

كعادة أمها معها لا تطق لها حديثا، أوشك صوتها أن يخرم طبلة أذنها:

- إني مازلت كما أنا، لم أتغير، المحرم جار سها إنسان محترم هو في صحبة أختكِ وليس العكس، وهذا بمالها أي أنه مدفوع الأجر وإن قلَّ عقله سوف ترميه في الشارع... بحماسٍ أكثر: على العموم الكلام معكِ لا يجدي نفعًا، مع السلامة.

أغلقت الخط دون أن تسمع الرد!

(٨)

موجعة هي الحقيقة ، عند الوقوف عندها ، حين يكتشف الإنسان أن كل الذي فعله هو في حقيقته هروبٌ من واقعه الأليم ، تحت مسميات مختلفة : حياة ، مجتمع ، عائلة ، حب ، إخلاص... يقنع ذاته بها بإصرار دون تردد أو تفكير ، صدمته عظمى لو تعرّى صدق الأشياء أمامه ، صراع يدمر نفسه بانكسار التجبر باحثًا بعدها بجدٍ عن ماهية الحياة.

كم طعنة نشفى منها ، وكم من غيرها تترك أثرها فينا ؛ وكم أخرى تخفي أحلامنا الجميلة علينا ؟ بلا شك أشنعها تلك التي تُميت أحاسيسنا وآمالنا فينا ، وتخلقنا من جديد مشوهين... انصب اهتمام يونا على ولديها لتهرب من طعنات من حولها إليهما وتجعلهما بر أمانها الحصين ، بالأخص تلك التي تلقتها من مثلها الأعلى زوجها قديسها ، نسيت أنه بشر جعلته يرتقي سُلم الملائكة دون شك ، تفانت في حبها له كي تجنب نفسها معاناة أمها ؛ فباءت بالفشل! ضربات سياطه لها دامية موجعة ، ما أن يندمل جرحها الأول حتى يكَلّمَه بآخر وآخر حد التقرح ، ندباته كست قلبها ، كان قرارها حازمًا في تركه لصحوة نفسه!

• • • •

طرقات متتالية متواصلة بقوة على الباب، رافقها قرع لجرسه، لم يهدأ صاحبها في ظهيرة يوم عاصف هادر ماطر، أفزع من كان في الدار...

اصفرَّ وجه يونا رعبًا كأن جسمها جفَّتْ فيه الدماء، فبدت لناظرها ليست من البشر، سرعتها لم تسعفها لانتعال نعلها بشكل صحيح فركضت للباب حافية القدمين، وهي تردد: يا رب سترك، استر يا ستار، كل ما تأتي به خير ورضا... تمالكت نفسها وطمئنت:

- نعم لحظة، إني قادمة.

من ربكتها أدارت المفتاح الموجود بقفل الباب بالعكس فقفلته مرة أخرى، تكرار الطرقات على الباب شوش تفكيرها وأرجف يدها، سقط المفتاح من قفله على الأرض بين الأحذية المركونة هناك، الدقات لم تتوقف، وصفير الريح في الخارج يدوي... ترجت منْ كان خلف الباب بالصبر والرأفة بحالها، غشاوة حجبت نظرها، اكتفت بالبحث عنه بيديها، شهيقها أصبح صعبًا وزفيرها أصعب، بدأ العرق يقفز خارج مسامات جسدها، وجدته نزل حملاً من على قلبها... أرجعته في قفله وأدارته بحذر... إن فتح الأبواب الموصدة يتطلب عناءً وتعبًا لا يخلو من حذر...

أطلَّ وجه أمها مستاءً وجمًا، جسمها الطويل وملابسها المبتلة، لم تحمي شعرها قبعة جاكيتها من البلل، فبدت كشجرة عندما تنفض الريح أوراقها من المطر...

أبت دموعها السجينة بحجرها أن تنهمر؛ حملت حقبة ثياب أمها

لتخفف عنها عبئها، نبرة صوتها واضحة الشجن:

- دنيانا نورت بقدومك يا أمي

كمن أُرغم على الإجابة:

- شكرًا، أفسحي لي المجال كي أدخل، ألا ترين الذي أنا فيه؟

دارت مضيقها ضاحكة:

- لكِ الدار، ولنا البر.

وضعت يونا الحقيبة جانبًا، غابت لثوانٍ، أقفلت مسرعة مادَّة يدها لوالدتها بمنشفة الحمام:

- امسحي الماء من عليك، أفضل لو تأخذين حمامًا ساخنًا كي لا تمرضي، ادخلي للحمام وسأجلب لكِ كل ما يلزمكِ.

رعشة برد داهمت أمها فجأة مما اضطرها لقبول عرض ابنتها، ناولت يونا كوب شاي أسود ساخن تفوح منه رائحة الهيل لأمها بعد خروجها من الحمام وجلوسها في مكانها المفضل الذي لا ينازعها عليه أحد، بعدما تنحى حفيدها سامر عنه جانبًا، على أكبر أريكة تتوسط غرفة الجلوس مقابل التلفاز مباشرةً، رغم الأجواء الماطرة في الخارج فجو البيت الهادئ يشعركَ بالدفء والأمان، أتت يونا من المطبخ بقالب الكيك الساخن المعمول بالمكسرات الخارج للتو من الفرن الذي تصنعه بمهارة ورائحة الليمون عبقت المكان منه، يسيل اللعاب له في الأفواه، قطعت منه قطعه كبيرة ووضعتها في طبق على الطاولة أمام أمها لعلمها بحبها لها، ثم أخرى أصغر لزوجها، وقطعة مثلها لابنها سامر

ولها أخرى أيضًا بعد أخذ مكانها في الجلوس بقربه... صاغت جملة يونا بفكرها ولغتها، ثم أخرى وعدلت عنها، لا تعرف كيف تبدأ حديثها كي تكشف ما في جعبة أمها، معرفتها بها تؤكد لها أن شيئًا ما حصل أجبرها على زيارتهم رغم خلافها في المكالمة الهاتفة الأخيرة معها، أحجمت عن بدأ الكلام، فهي تمقت استدراج الآخرين للحديث، اقتناعها ثابت أنه لو ودَّ أحدٌ التعبير عن ما يقلق داخله فأنه لا يحتاج لمقدمات.

سعلت، عطست تنهدت:

- يا ويلي، يا خوفي لو مرضت، سيكون الشفاء صعبًا! ما العمل يا رب؟ ليس في هذا الوقت، عمل شاق ينتظرني وربما احتجت إلى جهد مضاعف لإتمامه...

تبادلت يونا وزوجها نظرات الاستغراب:

- ما هو هذا العمل؟ منذ متى وأنتِ تعملين، وأين؟ جديدٌ عليَّ أن أراكِ بعد هذا العمر تعملين، ألا يكفيكي تعبًا، هل خُلقتِ للشقاء فقط؟

- هوني عليكِ، أقصد لابد من أخذ تأشيرة دخول أوكرانية من سفارتها هنا، بعد فترة قصيرة لا تتعدى أسبوع بل أيام، للقاء أختكِ وفاء، فهم الآن في الأردن، ومن هناك وجهتهم أوكرانيا، بعد رفض عاطف مساعدتي، عندما زرتهم محمله بالهدايا اليوم صباحًا لم يخجل أن يردني خائبة الرجاء، قصدتكم في القيام بهذه المهمة.

- مهلكِ عليَّ كي أفهم ، هل يعني هذا أنكِ أخذتِ قراركِ وعلينا تنفيذه دون حتى العلم بالشيء ، جميل والله ، ماذا نعني نحن لكِ؟ هكذا وربي أننا لم نُحصل البقرة الحلوب ، فالأخيرة يرعاها صاحبها حتى تدر عليه خيرها ، أما ابنتكِ وعائلتها لا تهمكم سوى في تلبية رغباتكم!

قاطعها زوجها هاني آمرًا :

- كفاكِ هياجًا ، اهدئي حتى نفهم ، متى وصلوا الأردن ؟ كيف سيصلون إلى أوكرانيا ، رسمي أم تهريب ؟ ثم كيف تجازفين بالسفر إلى هناك يا عمتي العزيزة وأنتِ في هذا العمر ولا تفقهين من اللغة حرفًا؟ ومن أين لكِ تغطية كل هذه التكاليف؟

- ماذا دهاكما ؟ ألم تلاحظا أنكما لم تباركا خروجهم وتتمنيان لهم الوصول بسلامة؟ ما خصكَ في مجازفتي ، لم أنتظر مساعدتكما المادية ، أولاد الحلال كثر ، البارحة كنت في مراجعتي الأسبوعية عند الدكتور كريم العراقي ذي التبعية الإيرانية وشرحت له الظروف بدموع متساقطة من قسوة أولادي ، صراحةً الرجل لم يقصر وفَّى بوعده ، استدنت المبلغ الذي أحتاجه منه... تنهدت بنفس عميق : آه الله أكبر ، صحيح لو خليت قلبت وهي تنظر صوب هاني : ها قل لي الآن هل ستوصلني غدًا للسفارة كي أختم فيزا أوكرانيا على الجواز ؟

طفح كيل يونا ذرعًا من تصرفات أمها :

- أكيد كما في كل مرة تجنيتِ علينا وعريتنا بلا خجل أمام

دكتوركِ ذاك بلا إنصاف، هذا ليس بجديد! هو فيلمكِ نفسه الذي حفظناه لاستعطاف الداني والقاصي على حساب سمعة أولادكِ، لم تعد لنا في الحياة خصوصية بل أكثر منه شوهتِ صورتنا بالباطل والافتراء...

تدخل هاني ليحسم الأمر وكأنه يكيد لزوجته وليزيد نارها المتقدة فتبدو أمام مقابلها مريضه نفسيًا ظالمة وهو المسكين القانع الراضخ بنصيبيه:

- لا تقلقي عمتي الغالية، نعم غدًا سآخذكِ إلى هناك دون تفكير... بابتسامة حتى ينهى ما علق: أنتِ الخير والبركة، كم أم نبيل لنا غيركِ؟

مواقفه المتكررة هذه؛ جعلت يونا في ريبة من مشاعره لها، فقد كانت ردوده في البدء تثير غضبها لعدم فهمه لها، فتفجر حمم بركان داخلها بأسى وقهر دون حساب، في سنوات زواجها الأولى أصبحت متوترة، قلقة وحزنها ضاق تنفسها، تثار بل تنفعل لتوافه الأمور، مما أبعد الكل من حولها، فتنتها، أحرقها ظنهم أنها مصابة بعقلها؛ صدقها مع نفسها شرع في الوقوف عند كل ما يعترضها وإيجاد حل حينها فقط تكون مطمئنة راضية، خرج عن إرادتها حصر وفهم كل ذلك وتراكمه في داخلها صنع منها إنسانة غريبة عنها، محاولاتها البائسة لم تسعفها بل زادت همها همًا، صراعها مع نفسها في حسم قرارها أقلق أيامها ونومها؛ إما أن ترضخ لتوسلات وبكاء ولدها سامر في عدم ترك والده وقتل إحساسها في

داخلها بل التضحية بنفسها، أو إرضاء نفسها وتصالحها معها على حساب تدمير ولدها، بطبعها كان أهون قتل نفسها مليون مرة من أجله ولا تعيش لحظة بذنبه رغم خوفها مواجهة مصير أمها!

أنقذها من موقفها دخولها في شد وجذب بكاء صغيرها نوح، هرعت إليه دون نظرة للوراء!

• • • •

دخل هاني وعمته الدار عند الواحدة ظهرًا وهو يتأفف، علامة السأم والملل لا تخفى على من يراه، سألته زوجته لتخفف عليه حمله:

- ماذا هناك، هل حصلت أمي على الفيزا؟ لابد أن الجوع ينهشكما الغداء جاهز... نهضت وهي تدخل المطبخ: هيا لتناول الغداء وسماع نتائجكما المذهلة... هاني أرجوكَ أدعو سامر معكَ للغداء من غرفته بهدوء كي لا يفيق نوح، جلبته من المدرسة مبكرًا اليوم.

غرفت الطعام في الأطباق، رائحة الرز البسمتي الهندي تتسلل الأنوف مع بخاره المتصاعد وبخار مرق (شوربة) البط المحمر المتوسط الطاولة إلى جانبها الأقصى طبق كبير فيه قطع الفجل الأبيض الفجل الأحمر وأنواع خضار أخرى... جلسوا حول الطاولة، لاحظت يونا تلافي زوجها لأمها:

- هل توجد مشكلة في الفيزا؟

احتقن وجه هاني، جحظت عيناه، هزَّ رأسه امتعاضًا كانتفاضة الطير بعد البلل:

- خيرًا تعمل شرًا تلقى؛ جزاء شكري حياد لفي ودوراني ميونخ منذ الصباح الباكر حتى وقعنا بالسفارة المرجوة، وكأني أعمل سفيرها مسئول عن أوقات عملها، كان يوم عطلتهم، ما أن عرفت والدتكِ هذا حتى انهالت علي بالشتم بقولها صحيح لو قالوا النسيب ذيب (ذئب) هذا نوع شكر جديد لم يصادفني من قبل رغم ذلك وعدتها بالذهاب غدًا معها لكنها لم تقتنع كانت توشوش نفسها بجُمل صعب عليّ سمعها!

ابتسمت يونا:

- إنها الخير والبركة، أليس كذلك؟

ضحك الجميع...

تم سفرها بعد أسبوع من أخذ الفيزا بعد أن أوصلها هاني للمطار واطمئن لركوبها على متن الطائرة داعيًا لها الوصول والعودة بالسلامة.

(٩)

العطاء بسخاء سِرّ البقاء

جاءت زيارتها لهم بيومين من زيارتها لعاطف ابنها بعد عودتها من السفر وهي ترثي حال ابنتها وعيشتهم المزرية قطع أوصالهم؛ إقامتها معهم في أوكرانيا أسبوعين زاد رعبها على بنات ابنتها حيث تُمارس الفحشاء في كل ركن وزاوية؛ بل في الحدائق العامة دون مستحى أو خجل! مما اضطرها الضغط عليهم بالهروب من بئرهم العميق المتهالك ذاك بأي ثمن...

السابعة مساءً من ذات اليوم رنَّ جرس الدار، قفز الصغير سامر مرحًا كتأرجح القرد بين أغصان الأشجار لفتح الباب، وأمه تنهره أن يكف عن القفز كي لا يؤذي نفسه، دبيب الخطى ليس غريبًا على يونا، أطلَّ وجهه العريض الضاحك وشعره الأشعث متدلي عشوائيًا يسار جبهته العريضة مخبئ تحته عينه الخضراء اللون، جسمه الطويل الممتلئ يافع الشباب مال يمينًا ليوازن حمل الحقيبة اليدوية الكبيرة البنية اللون ذات الجيوب الخارجية بسحابتها السوداء الذي انتزع سحاب جيبها الأيسر بيد يونا في إحدى زيارات أبيها وبقائه عندها محاولة إصلاحه كيفما أتفق، مال أكثر تشبث بباب غرفة الجلوس المفتوحة إلى يساره كي يتلافى السقوط

عندما أزاحته ابنته مريم التي تصغر سامر ستة شهور لتدخل ، فنهرها بالتريث ، لم يفوتها ما يستاهل الاستعجال ، دخل وبعده زوجته كرستينا وبطنها التي تتقدمها والتي يرقد بهدوء ابنها كريم فيها ، ومن بعدهما أبوه... قابلتهم يونا بالأحضان والقُبل... أخذت الحقيبة من يد أخيها :

- هل الدواء في داخلها لأبي كافٍ مثل كل مرة لأسبوع؟

- لا ، هذه المرة لأسبوعين، ربما يبقى هذه الفترة عندكِ.

- مكانه في عيوني ، ولكن الشقة صغيرة هل سيستريح في الليل مع بكاء نوح؟

- إن تضايق باستطاعة هاني إعادته إلى دار المسنين، إنه يعرفها.

زرته بنظرة استغراب :

- هل غدًا العيد؟

كأنه لم يسمعها قبل أمه :

- كيف حالكِ يا أمي؟

- إني بخير... وهي تشير إلى القرطين في أذني كرستينا : ما رأيكِ يا يونا بهما جميلان أليس كذلك؟ إنهما هدية وفاء لي عند زيارتها فأهديتها بدوري لكرستينا.

- إنها جميلة ، شعورها بالدُونُ رغم عدم حبها للتبرج : وما هي هديتي؟

لحظات صمت طال التفكير فيها :

- لو أهديتكِ هذا المحبس - وهي تشير على أحد محابسها - هل تستبدلينه بمحبسكِ الوحيد الذي في إصبعكِ؟

حتى ترضي شعورها بالمساواة مع زوجة أخيها رغم امتعاضها من طلب أمها؛ قبلت المساومة!

أيامهم التالية شلَّها الاضطراب، شغلها الترقب والقلق على مصير بنات وفاء الثلاث الصغيرات بعد أن أبرمت أمهن مع المهرب اتفاقًا، رغم عدم موافقة أهلها على ذلك الاتفاق، بتهريبهن مع مجموعة كبيرة من مختلف الجنسيات والأعمار والأجناس، في شاحنة نقل إلى برلين شرق ألمانيا التي تبعد عن ميونخ ٦٥٠ كم تقريبًا، حيث تسكن أختها ولاء مع ابنتها، بعيدًا عن تحمل مسئولية أمها وأبيها!

في وقت ومكان محددين، طبيعة ولاء المتهورة المتسرعة ما أن مضت خمس دقائق على الموعد حتى وترت الجميع باتصالاتها المتتالية دون استراحة تفكير، بدأ البكاء والعويل في ضياعهن بلا دليل، ساعة صمت منها، كادت تؤكد الخبر المشئوم، الكل يتوسل بالهاتف أن يعطف عليهم ويرن لسماع خبر يبرد جمر قلوبهم المستعرة حرقةً على الصغيرات! لم يكمل نصف رنة حتى تلاقفت سماعته الأيدي، جاءهم صوت ولاء فرحًا بعثورها عليهن في أحد فروع الشارع الرئيسي قرب المكان المتفق عليه، بعد أن أخذ التعب والجوع والعطش من بتول ابنتها الصغيرة فبدأت بالصراخ والنحيب مما اضطر أمها لحملها كي تسكتها ولا تجلب النظر لهما

وجدتهن بعد نصف ساعة من الموعد بثيابهن الرثة الخفيفة جالسات متلاصقات ببعض من البرد والرعب ، كذَّبت عينيها ، أنزلت ابنتها ، نادتهن بأسمائهن فقفزن عليها مثل القطط عندما ترغب اللعب ملتفات حولها هي وابنتها بالأحضان والقبل ليقتلن ظمأ الوحدة ورعب الغربة في هذا البلد ، بللت أجفانهن الطرية الغضة دموع فرح وسعادة ، قبل أن يتسلل ؛ بل يلمح خيالهن ؛ اليأس للقاء لأهل ، حمل همًا كالجبال من على أكتاف سامعيها سقطت كعادتها مباغتة بتوتر وعجل كمن عاد له فكره بعد غياب:

- يجب أن نرحل من هنا على عجل، مظهر البنات فيه شبهة وأنا غير مستعدة للمغامرة بنفسي وبنتي، مع السلامة.

تجرأ عاطف وسأل عن ما يجول في خاطر الجميع ويشغلهم:

- متى ستصل أمهن ؟ وينعمن الصغيرات براحة أطالها الزمان عليهن وكأنه كتب لهن الشقاء دون هدنة.

نبرة الشجن ساكنة في أعماق أمهم واضحة مع كل حرف نطقته بحسرة ، كمن خنقته عبرته المكتومة في أحشائه وحان قذف حِممها ليرتاح:

- آه... كم آه... يا وفاء كم عانيتِ من ألم يا حبيبتي ، كنت أنوي سترها وأنا أملك سبع بنات وهي ثاني أكبرهن عندما تقدم طليقها فرج لخطبتها من محافظة ديالى سألنا عنه ولم نسمع إلا الخير عمرها لم يتجاوز السابع عشر توسلت ببكاء أن لا يتم هذا الزواج ، لمعت عيناها حسرةً عليها ، حبست دموعها في

محجرهما وتابعت بعد نفسٍ عميقٍ كعدّاء استراح بعد قطع أميال الكل يصغي مشدودًا بانتباه مشاركًا إياها كدرها: لكني في ذات الوقت أرضيت ضميري وأصلحت خطأي... نظرتْ لولديها وزوجها مستشهدة بهم: أكيد لم تنسوا حين أتت هاربة بعد ضربها وسبابها والأبشع رميها بأقذر التهم منه ومن أهله؛ أحرقهم الله بنار جهنم؛ حافية القدمين وعلى صدرها ابنتها البكر شهد التي لم تتجاوز السنة والنصف من العمر بعد، دون زاد أو ماء، حتى وصلت من ديالى إلى بغداد، مظهرها درَّ عطف أولاد الحلال الذين كانوا أحن من زوجها وأهله عليهما، عندها أقسمت أن تعيش حياتها حرة معنا مهما كلفني ذلك، حتى أنه لم يخف عليهما من سعير الحرب مستعر، يا لقسوة قلبه المتحجر، تركها تقطع هذه المسافة لوحدها مع صغيرتها وهي غير عليمة بها! في بدايات أيام الحرب مع إيران وكان ذلك قبل يومين من قصف مصفى النفط في "الدورة"، لهيب النار وصلنا للبيوت رغم بعدها عنه كيلومترات، مما اضطر جميع الناس للفرار دون تفكير من بيوتهم ليتجنبوا ألسنتها الحارقة... اقشعر بدنها فبدا واضحًا لكل من جالسها: أنا أذكر هذا وكأنه اليوم الله لا يعيدها أيام! بل هذه نتائجها فالعراق لم يخلص من ويلاتها حد الآن وربما ولا حتى بعد مائة عام! المهم نفذت قسمي وانفصلتْ عنه برغبتها طبعًا، أكملت دراستها وتوظفت في وظيفة مرموقة بشهادة المتوسطة بعد تخرجها منها كما تعلمون كانت معززة مكرمة هي وابنتها، فاجأتنا يوم أتت به إلينا لخطبتها من جديد،

بعد خروجها الدائم معه دون علمنا! كأننا منْ أرغمها على تركه! بعد أربعة أعوام انفصال، وما كانت تنتظر منه غير ما عاشته من قبل معه! بل زيادة حملها بثلاث بنات أخريات، كما يقال (ذيل الكلب ما يعدل). أتمنى أن تكون خاتمها مع بناتها خير وسعادة يا رب... ردد الجميع كأنهم منومون مغناطيسيًا بحرقة معها من أعماقهم: يا رب... ختمت كلامها بسؤال نفسها بصوت مسموع وضربات قلبها تسارعه من توترها المباغت كادت تخلعه من مكانه ليقفز خارج ضلوعها: لكن مهلاً ألم تعدني بسكناي معهم، كيف سيتم هذا وبيننا كل هذه الكيلومترات؟

• • • •

لم يصلهم خبر عن وفاء أسبوع كامل، انعدمت سبل الاتصال بينهم مما زاد خوف أختها ولاء من أن أحد الجيران يلمح بنات أختها وفاء عندها ويبلغ السلطات عنها، حيرتها وقلقها أعيا تفكيرها فكيف يمكنها الصرف لِطعام ثلاثة أشخاص إضافيين لفترة لا تعلم مداها؟ وهي تعيش على مساعدات الدولة التي تجود عليها بها كراتب شهري مثل غالب المغتربين بما يسد رمقها مع ابنتها فتقشفت في مصروفاتها كي توفر بعضه لغدها، نحن الشرقيون تأصل فينا حب الإدخار حتى لو ضمنا لغدنا ما يكفي ويفيض كأن حياتنا مدى الدهر!... اتصلت بأختها يونا تسأل عن أمها بعد محاولاتها الفاشلة للتحدث معها هاتفيًا:

- مرحبًا ، كيف حالكم ؟... كعادتها أكملت قبل أن تسمع الرد : عزيزتي هل أمي عندكم ، منذ الأمس وأنا أحاول الاتصال بها دون جدوى؟

سعادة يونا باتصال أختها أغشى تفكيرها عن هدف اتصالها ، ولتشد من أزرها في فعل الخير :

- مرحبًا حبيبتي ، ما هي أخباركم؟ كيف حال الصغيرات بغياب أمهن ، إني متأكدة من سعة قلبكِ وطول صبركِ؟ لابد بأن ابنتكِ فرحه بلقائهن واللعب معهن.

- تفكيركِ ضيق ومحدود ، فالناس المعذبون تشغلهم أمورٌ أعمق وأكثر جدية من هذه التافهات التي تراودكِ ، كيف لا وأنتِ تعيشين حياة مترفة مع زوجكِ الذي تحبين ، نصيحتي لكِ في أن لا تتعبي تفكيركِ معنا واتركي أمرنا يتولاه ربنا... ختمت خطبتها تلك دون أي اعتبار لمشاعر أختها : هل لي أن أكلم أمي أكيد هي عندكِ؟

صدمتها أخرستها لحظات ، قبل أن تزج نفسها في نقاش عقيم معها وكي لا تجرح شعورها :

- أنا آسفة أن تدخلت في ما لا يعنيني من وجهة نظركِ ، أتمنى لكم نهارًا سعيدًا ، وهذه أمكِ تتكلم معكِ

تنحت جانبًا مسلمة دفة المكالمة لأمها ، ونار قلبها حولته لجمرة مشتعلة غلت أحشائها ، تساقطت الدموع من عينيها رغم محاولتها البائسة لإخفائها ، ففرت من غرفة الجلوس إلى غرفة نومها بحجة

ترتيبها ، وهي تعيد كل حرف نطقت به أختها فلم تجد مبررًا يعذرها ، كي لا تخسر أختها ؛ عزت ذلك لضغطها النفسي للظروف التي تعيشها ، بكاء صغيرها حاد تفكيرها له ، رفعته من سريره الذي وضعه ملاصق لسريرها لضيق مساحة الغرفة تاركًا حيز صغير للحركة بينه وبين الحائط الفاصل للغرفة والذي يدخلك لممر الشقة عن طريق بابها الأبيض متوسط الحجم ، المساحة من الجانب الثاني لسريرها كانت أوسع قليلاً فبدت الغرفة أكبر بسبب الشباكين العريضين المقابلين لباب الغرفة أمدت سجادة لا يزيد عرضها عن المتر ونصف على طول أرضية نهاية السريرين ففصلتهما عن خزانة ملابس قبالتهما صنعت هي والسرير من الخشب الإيطالي ذات الجودة العالية برصانة ، فن وجمال أعجب به كل منْ رآها بلونها البني الفاتح اللامع ، قبلتها الساخنة من جبين صغيرها أنست يونا قهرها ، حبها وخوفها عليه بحجمه الصغير الذي لم يتجاوز الكيلوين غرام بعد مالك كيانها ، شمت عبقه بنفس عميق فسكرت بنشوة حب لا يعرفه إلا القليلون من البشر ، أرضعته بعد أن جلست على حافة سريرها من ثديها ، لم يطل الصغير في الرضاعة، عضلات وجنتيه الضامرة لا تساعداه على ذلك ودفء حضن أمه أغناه عن الرضاعة بسرعة واستسلم للنوم مما أضطرها على مضض إيقاظه من جديد وهي تمرر سبابتها بلطف على وجهه ، فتح عيناه بكسل ، رضع قليلاً وغفا من جديد وعاود الكرة مرات ومرات ، إحساسها بالرضا لما تناوله صغيرها جعلها تستجيب لرغبة نومه ، وضعته في سريره وسارت على

أطراف قدميها خارج الغرفة موصدة بابها خلفها بحذر... ثار عطفها عندما رأت أمها سارحة بكدر ، على ملامحها بان القهر وهي تدخل غرفة الجلوس مساعدةً لحمل همها معها:

- غاليتي ، الحياة والله لا تسوى كل هذا الحزن ، كل شيء فيها برضانا أم غصب عنا زائل ، فما يبقى منا إلا ذكرى طيبة في داخل محبينا وقد تكون حزينة ، بل البعض ربما يلعنوننا ، فإقناع كل منْ حولنا غاية لا تدرك.. هل أستطيع مشاركتكِ وأحمل بعضًا من همكِ؟

- لا شيء سوى أني أصدق ما يقال وأحلم معه في فضاء واسع!

- قصدكِ ولاء وبقاؤها في برلين ، ألم أنبهكِ لذلك من قبل؟ ولكن مهلاً كيف لكِ التأكد من أنها ستبقى هناك؟

- أبلغت أختكِ وفاء بذلك في مكالمتها الوحيدة معها ، عند اتصالها لتطمئن على وصول بناتها ، قبل انقطاع سبل الاتصال بينهما ، حيث أبلغتها أنها سترحل من هناك ؛ وفاء تذمرت من وجود البنات عندها وخصوصًا هي لا تعرف مدة إقامتهن عندها وطلبت المساعدة في مصروفاتهن وكأني المسئولة عن خراب مالطا!

- هوني عليكِ ، سأبعث لها ما يقدرني الله عليه ، ألم أبعث لوفاء مائة مارك شهريًا عندما كانت بالعراق؟ رغم ظروفي المعيشية التي لا تخفى على أحد منكم... ممازحة: يا ستي سأعتبرها ما زالت هناك لا تقلقي فلها رب مدبر... كي لا تحبط أمل أمها

أضافت: ربما يكون حظكِ أوفر مع سها، منْ يعلم الغيب؟

برقت عيناها بالأمل:

- ربما، بل أكيد، فهي تختلف عنكم جميعًا بحبها الكبير لي.

- أنا لا أتنبئ الغيب ولكن كما يقال: (المياه تكذب الغطاس)! الآن لابد لي من جلب سامر من المدرسة، أرجو الاهتمام بنوح لو أفاق من النوم رغم أني متأكدة أنه لن يصحو قبل أقل من ساعة.

نبرتها الحادة الجافة أحزنت يونا:

- ماذا أفعل له؟ ألم يكفي تربيتكم وتعبي عليكم! بماذا خرجت منكم حتى انتظر من أولادكم؟

لم تجِبها، ارتدت ملابسها على عجل، قالت مودعة:

- مسافة الطريق، لن أتأخر.

(١٠)

غربة الإنسان الحقيقة تكمن في عدم تفهم أقربهم إليه

أسرار كوامن الإنسان أعمق من كل البحار ، الغوص فيها يتطلب جهدًا ، مشقةً ، محاط بالمجازفة والأخطار ، اختلف البشر في المشاعر والأحاسيس بمعيشتهم على الأرض ، بعضهم تنفر منه للوهلة الأولى حتى دون أن تبادله كلمة كأنه محاط بذبذبات تتنافر معها ، آخر متلون خطير الذي يتجاذب معك ويشعرك بالأمان وراحة البال تفاجئ أنه خطط ؛ بل دبَّر لما لا تتوقعه وفيه ربما أجلكَ ، ثالثهم يفهم لكنه يحسدكَ لشيء ما في داخله فيتربص لكَ ، وهناك منْ الذي تتفانى له وتفني أمالكَ ، أحلامكَ بلا ثمن له ، سنين تُسرق منك وتتسرب كحلم براق زاهي الألوان تكتشف في أخر لحظة عمر أنه لم يعرفكَ ولن تكون له على بال ، عندها فقط ينتابك اليأس وتتأكد أن الحياة كانت وهمًا ، سرابًا.

عناء ومعاناة تهريب قاسيه بعدها وصل زاهر الرشيق ذو الطلّة البهية أخو يونا الذي يكبرها بعامين مع زوجته نهال بنت خالتهم وابنتهما البكر جمانة وأخيها أثير إلى النمسا وبقائهم فيها ثلاثة أعوام ، مصاريف التهريب تكلفت أمه بها حينها ، جاء بعد استقرار يونا وعاطف بخمسة أعوام ووصول والديهم بعام ، قرروا مغادرتها متجهين لألمانيا ؛ تحديدًا ميونيخ ، حيث يقيم بعض الأهل

هناك بالتنسيق مع عاطف لذلك وعوده لهم بالوقوف معهم في كل ما يحتاجون وكان بسبب رفض طلب لجوئهم بعد انتظارهم طول تلك الفترة.

أيام ثلاثة مداولات ومناقشات عاطف وزاهر فيما يقوله وعائلته عند تقديم طلب اللجوء ، اتصل عاطف عند غروب شمس يوم الأحد بيونا يبلغها بأن عزيزًا يود التحدث معها:

- ألو كيف الحال؟

- ألو... كادت تقفز من الهاتف لتصلهم: كيف هذا ؟ هل حصلتم على اللجوء؟ حمدًا لله على سلامة وصولكم، أكيد أنك مع العائلة أنت لا تحتمل فراقهم ساعة، متى ستتشرفوننا بزيارتكم؟

- شكرًا ، أننا منذ ثلاثة أيام هنا ونود زيارتكم الآن؟

كرَّرت كلامه لتتأكد:

- منذ ثلاثة أيام؟ والآن تودون زيارتنا؟

- نعم ، هل هذا التوتر الظاهر بنبرة صوتك من الفرحة أم من شيء آخر؟

- لا تشغل بالكَ ، فرحتي بقدومكم تساوي كنوز الدنيا ، مرحبًا بكم بكل وقت.

- إذن إلى اللقاء

- إلى الملتقى

عشرون دقيقة مسافة طريقهم بسيارة عاطف الخاصة من شقته إلى شقة يونا ، استقبال حافل وقُبل الشوق الملتهبة أدخرت لسنوات ،

أحضان تروي غربتهم القاتلة، تنطط سامر فرحًا بينهم وهو يردد: هذا خالو زاهر، أول مرة يراهم وعمره ثلاث سنوات ونصف... وبعد ما جادت به يونا عليهم من شرب وزاد؛ ودَّعهم عاطف متعذرًا بالعمل غدًا باكرًا.

جلسوا جميعًا في غرفة الجلوس، زاهر بدأ الحديث:

- أرجو أن لا تردي طلبي، فأنتِ أملنا في النجاة؟

نالت منها مفاجأة طرحه فهي لا تتنبأ خفاياه:

- شغلتني، ما وراءك؟ لن أتوانى لحظةً في خدمتكم، كم أخ لي في غربتي؟

- غدًا نحتاج مساعدتكِ في تقديم طلب اللجوء هنا في ألمانيا، لقد أتانا رفضٌ في النمسا فشجعنا عاطف على المحاولة هنا... وبعد ما اتفقنا معه على كل شيء؛ أتى بنا إلى هنا كي تذهبي معنا.

ذهولها أخرسها لحظات، عندها لم تفهم كيف التخطيط لكل هذا دون الرجوع لها، تمالكت إحساسها بالاستغلال كتمته في أعماقها، رسمت ابتسامة حب صادقة:

- لا تشغل بالك، سنذهب غدًا بمشيئة الله.

تمَّ لهم ما تمنوا، كل نهاية أسبوع كانوا يفرون لها عائدين من قرف دار اللجوء المؤقت لينعموا براحة وخدمة فنادق خمس نجوم، جرت العادة بتجمع العائلة من أكبرها لأصغرها عند يونا، الفرحة كانت لا تسعهم هي وزوجها وولدهما سامر بقدوم الجميع، تكمل عملها كمحاسبة في أحد المحال التجارية القريبة من شقتها

وتقفل على عجل للبيت تتفحص ما يلزم من مشتريات للزوار القادمين بعد ساعات ، بل كل فرد ما يشتهي ويحب والدها والدتها... أغلب الأحيان كان زاهر وعائلته يقيمون الأسبوع كله عند أخته ، بحجة مساعدتهم في الترجمة وعلمها بالطريق في مراجعة الأطباء وخصوصًا زوجته التي كانت تود أن تكون حاملاً فتأخذ لهم مواعيد حسب ما يسمح به وقت جدول عملها... كان هو في صباح كل يوم يذهب باكرًا بمفرده لدار اللجوء لتسجيل الحضور... حصل المنال لنهال وأصبحت حاملاً... في إحدى تلك الأمسيات توسل زاهر لأخيه عاطف لاستئجار شقة له باسمه بحكم عمله في محل النظارات الطبية حيث لا يوافق صاحب الملك على المستأجر إذا لم يملك عملاً ثابتًا براتب يغطي الإيجار وزيادة ، على مقربة من شقته وشقة والدتهم كي يتسنى لها زيارتهم كلما شعرت بالوحدة.

كلماته الأخيرة شجعت عاطف على إيجاد ما يناسبهم بعد أربعة أسابيع من ذلك الحديث ، كان وقتًا قياسيًا ، لم تستطع يونا إخفاء تعجبها من هذه السرعة ، بعد إقامتها مع زوجها منذ فرزهما من دار اللجوء المؤقت إلى غرفة في جملون لا تتعدى مساحتها ستة أمتار طولاً في عرض ، أثاثها عبارة عن سريرين حديد وضعا موازيان لبابها ، يقابلهما دولاب ملابس حديدي ذو ذارفات ثلاث رفيعات إلى نهاية جانبه الأيسر وراء الباب وقفت ثلاجة قزمة لحفظ أطعمه تكفي بالكاد ليومين! شباك الغرفة الوحيد المقابل لبابها يطل من الخلف على مساحة أرض واسعة حدت بسياج

معدني وتُركت مهملة تفصلها عن الجملون على بعد نصف متر تلال ترابية متوسطة الارتفاع ، كان الجملون المستطيل الشكل عبارة عن غرف على طرفين متشابهة في الحجم والطراز ، فصلت عن بعضها بممر ضيق عرضه متر ونصف تقريبًا ، هذا على امتداد جهة اليسار للباب الرئيسي، الغرفة التي تقابله استغلت كمطبخ للجميع وضع على رف ألمنيوم خمسة طباخات ذات عينين لكل واحدٍ منها، في أقصى زاوية اليمين له وضع مايكرويف يقابل رف الألمنيوم أخر توأم له ثبت عليه حوضان لغسل الأطباق ، الغرف الأربع المتبقية من نهاية الجملون الأيمن كانت حمام نساء للاستحمام ملاصق للمطبخ، تليها غرفة المراحيض لهن تحتوي على أربع منها فُصِلت عن بعض بجدار من الخشب الرقيق أبيض اللون، وإلى جانبه غرفة على نفس تصميمه كمراحيض للرجال بجانبه حمام الاستحمام لهم يقابل حمام النساء ، تصميم الجزء المسكون يشبه إلى حدٍ كبيرٍ تصميم غرف السجون وممراته ، الفرق بين ساكنيهما طفيف ؛ أن الأخير مقيد الحركة ومحاولة الفرار منها يقضي ربما بمضاعفة العقوبة ، بينما سكان الآخر أحرار لا يسمح لهم بالابتعاد عن ذلك الجملون أكثر من ثلاثين كيلومتر ، وإن أُمسك بأحدهم متجاوزًا تلك المسافة أُمر عليه بالترحيل من حيث أتى دون استثناء ورأفة ، هذا في بلد أوربي يحترم حقوق الإنسان!

الغرفة التي سكنتها يونا وزوجها هاني كانت قبل الأخير قرب باب طوارئ صغيرة ثانية للجملون الذي كان أخر شقيقاته الثلاث

المتبقيات صنع بأبسط ما يكون من الخشب المضغوط، سمح من زواياه وثقوب جدرانه التي شيدت على عجل بتسريب رياح الثلج الباردة شتاءً كان صفيرها المدوي يصيب يونا بالرعب ويقلق نومها في كثير من تلك الليل فتتكور على نفسها لتحميها، أما صيفًا كانت تلك الفتحات تسرِّب لفحات هواء الشمس الحارقة إلى داخلها لتصبح حمامًا ساخنًا فيفرون هاربين خارجها... إقامتهم دامت أكثر من ثلاث سنوات هناك، حيث أن ولدهما سامر احتفل بعيد ميلاده الأول فيه، أُصيب بعد ولادته بالسعال الديكي، رافقته حتى عيد ميلاده الخامس نوبات السعال كانت تلازمه فصل الشتاء كله تقريبًا.

باركت يونا بأمنيات صادقة حصول أخيها زاهر وعائلته على شقة هاتفيًا في البدء؛ بعد شهر من استقرارهم فيها حملت الهدايا في نهاية أحد الأسابيع مع زوجها هاني وابنهما متوجهين إليهم بعد الاتفاق معهم على ذلك الموعد، استقبال زاهر البارد عوَّضه حرارة قُبل ابنته جمانة وأخيها أثير للقادمين، نزعوا أحذيتهم كيفما أتفق لإلحاح الأولاد وسحبهم من أياديهم إلى غرفة الجلوس حيث أمهم نهال جالسة مصطنعة الاندماج بمتابعة مسلسل عربي في التلفاز، الكدر والمضايقة بدت واضحة على ملامحها كوضوح بدر تلك الليلة حالكة السواد، يونا المحبة للغير، فرحتها بمن يزورها وكرم ضيافته واجب مقدس عندها، تصورها الساذج خيل لها بأن طبع البشر في هذا واحد! لم يساورها شك في ذلك، فعزت برود أخيها وزوجته لشيء آخر... بلعت انزعاجها وقفلته بصدرها

ممازحة:

- مساؤكِ خير وسعادة، حمدًا لله على سلامة وصولكِ لنا بخير يا نهال... وهي تنحني لتقبيلها: الكلب الذي عضكِ قتلناه.

على مضض همت بكسل واقفة:

- أهلاً وسهلاً، هل ترغبون بشرب ما هو بارد أم هو ساخن؟

- لا تعذبي حالكِ، كل ما تجودين علينا به ملائم.

بخُطى متثاقلة اختفت دقائق طوال، عادت بصينية عليها عدد من الكؤوس مختلفة الأشكال والأحجام، وضعتها على طاولة توسطت أريكتي الجلوس والمنخفضة قليلاً عنهما، أعادت الكرَّة مرة أخرى وعادت ببطلين كولا وفانتا وضعتهما قُرب الكؤوس:

- ليسكب كلٌّ لنفسه ما يرغب شُربه.

تبادلت يونا وزوجها نظرات الاستغراب؛ بادرت بسؤال كل واحد عن ما يرغب، إحساس ثقيل طبق على صدرها لا تعرف سببه ودارت ألمه عن الجميع لتنتهي الليلة بسلام:

- أين يمكننا النوم؟

- في غرفة الأطفال، سوف نضع لكم مرتبتين على الأرض وسط سريريهما.

أجابها زاهر وهو يهم واقفًا:

- هل لكَ أن تريني أين هي وسنتدبر الأمر؟

• • • •

خُطى نهال فوق رؤوسهم في الصباح الباكر ، وفتحها الشباك بقوة لتهوية الغرفة أفزعهم ، وتصوروا أن الوقت فاتهم وأصبحوا في منتصف اليوم ، ليفاجأوا بأن الساعة لم تتجاوز السابعة صباحًا بيوم عطلة الجميع يوم الأحد... نهضوا مرغمين ، أعادت يونا كل شيء كما كان ، ليتلقوا الصفعة الأخرى بأن زاهر وزوجته قد تناولا إفطارهما منذ وقت ، مما حملهما لحمل أمتعتهم والرحيل ، أتت نهال على ما تبقى من احترام عندما اتصل زاهر بهم بتحريض من زوجته بعد ساعة من وصولهم للدار مستفسرًا عن الفيلم الذي مثلته أخته يونا بسبب متابعتها لعب الأولاد بين الحين والآخر ، مساء أمسهم صعقها اتهامه تجمد عقلها ، فرت الكلمات هاربة عن لسانها ، لم تعرف بماذا تنطق ، تداركت أمرها وانتفضت لروحها المعذبة بجُمل تفاجأت هي نفسها منها:

- لا يستطيع أحد محو أخوتنا ، مهما فعلت ابنة خالتنا ؛ لن تمنعني من دخول بيتك ، صحيح بعض الأخلاق وراثة في الدم ، لم ننسَ ما حييت ليلة ذلك اليوم المشؤوم ، أم تراك مسحته من ذاكرتكَ؟ على العموم إني واضحة مع نفسي ومع من حولي ، لا حاجة لي للتمثيل أنا لا أجيد فنه أي غير موهوبة فيه ، الله يكفيك شر من يجيده.

- ماذا تقصدين؟ لا أسمح لكِ بالتجاوز ، لحد هنا ويكفي.

صعقتها كلماته:

- أنا آسفة ، عندكَ حق ، يبدو أني حقًا تجاوزت حدودي ، زيارتنا

لكم البارحة جلبت المشاكل، أعتذر، وصلت الرسالة، لكما ما ترغبان، على فكرة للأسف لا تستطيع محو أسماءنا من سجلكَ العائلي حتى بعد الممات... دمت أخًا عزيزًا، في كل الأحوال باب بيتي وقلبي مفتوحان لكم في كل حين... مع السلامة.

انهمرت دموعها رغمًا عنها بحرقة مَنْ يودِّع غاليًا للأبد، بتأثر وحزن استفسر هاني عن موضوع تلك الليلة وما ربطها بموضوع المكالمة اليوم؟

مسحت دموعها وهامت تقلّب في ذاكرتها مسترسلة:

- وقتها كنت في عامي التاسع على ما أعتقد، أيقظني زاهر من نومي، أصوات متداخلة؛ بكاء، نحيب، رجاءات لم أميزها من بعض لأمي والأخوات في نصف صحوتي، طالبًا مني النهوض على عجل، خوفًا انتابني، ارتجفت أوصالي كمصاب بالحمى، لم تحملني ساقاي على الوقوف رعبًا من المجهول الذي لا أود رؤيته، عندها إدراكي لم يسعفني لترجمة ما أصابني! صبره عليّ نفذ حينها، سحبني كالخروف الذي يساق إلى مثواه الأخير مرغمًا... كي لا أُفاجأ أغمضت عينيّ بيدي الصغيرة بقوة.

ابتسامه مزيفة رسمتها على شفتيها لتخبئ خلفها ألمًا قهرها لتصبح بعدها كهكهات.. وقبل أن يسألها هاني أكملت وكأنها قرأت أفكاره:

- لا تستغرب، إن خوف الأطفال يصوِّر لهم خيالات مبهمة، حينها صوَّر لي أني سأرى أبي وحشًا كاسرًا يهوى بساطوره

على رأس أمي فيتناثر دمها في كل مكان ، بالله عليكَ لا تسأل عن فيلم الرعب هذا ؟ على كل حال مازال منظرها راسخًا في ذاكرتي والدماء تسيل من أنفها وفمها والناتجة عن اللكمات المبرحة، نجت بأعجوبة بمساعد الجميع للإفلات من قبضة أبي الذي أمسك رقبتها بكل ما آتاه من قوة محاولاً خنقها ، ساعتها كان مغيب الوعي... هذه ليست المرة الأولى التي يشب بينهما نزاعٌ كهذا... بحسرة الظمآن للماء تابعت : حينها حلفت أن لا أعرض أولادي لموقف كهذا مهما يكون الثمن.

صمتت لحظات بانكسار مدعيه التجلد:

- ابتعدتُ قليلاً عن الموضوع أليس كذلك ؟... ما علينا ، كان ذلك ربما أعنفها ، لكَ أن تتصور كطفل ماذا يعني أن تذهب إلى النوم ويدكَ على قلبكَ ودعائكَ بسركَ أن لا تصحو على شجار ، لكن هيهات... تلك الليلة استأجرت أمي تاكسي صعدناه فوق بعضنا كيف ما أتفق، وجهتنا كانت بيت أختها أم نهال مستنجدة بزوجها حتى تثبت له أن لومه المتكرر في الطالعة والنازلة بأنها السبب في معاملة زوجها القاسية لها غير صائب ، لكي يساعدها في إيجاد حل لمشكلتها المستعصية... دخولنا عليهم في هذه الساعة من الليل زاد رعبهم، دماء أمي التي لم تجف بعد ومظهرنا الذي لا يسر عدوًا أو حبيبًا بملابس النوم دون انتعال ما يناسب ، أدخلونا غرفة الجلوس بأرضيتها العارية وأريكتيها الصغيرتين على ما أذكر التحفت وأخوتي الأرض للنوم بعد مشاورات ومباحثات فيما بينهم دخل علينا ابنهم الأكبر رعد غاضبًا:

- انهضوا جميعا لأوصلكم من حيث أتيتم، بيتنا لا يأوي لاجئين!

فاجئ طرحه أمي وهو الذي تخصه بمعزة خاصة فلم تتوانى في خدمة طلباته لحظة، عزة نفسها أبت عرضه:

- كما أتينا سنعود ، وكما يُقال (منْ ترك داره قلَّ مقداره)... لا يلومني بعد اليوم أحد.

إن الزمن كفيل بمداواة جراحنا ، طيبة قلب أمي لم تتأثر ، فمنْ يحب لا يعرف الكره لقلبه طريقًا... لفت الدنيا بنا لترسى بعد أعوام على ابنة أختها الوحيدة التي تكبر زاهر بعامين وتقبلها زوجة لابنها!... سبحان الله، الزمن يعيد نفسه بشخوص آخرين!

استوقفها هاني مستفسرًا عن سبب خلافات أمها وأبيها وهما ميسورا الحال ووضعهما عال منذ البدء... فأجابته بخجل:

- أبي كبعض الرجال يحب الجنس كثيرًا ، لم يقدِّر تعب أمي في رعاية أطفالها العشرة... كانت له مغامرات مع باغيات ، زاد الحال سوءًا عند كشفها تلك العلاقات ؛ هجرته بالفراش ، حبه لمضاجعتها كان سبب كل الخلافات.

أوصدت يونا باب قلبها على حب أخيها مختلقه له الأعذار ، لم تستغل أي فرصه للطعن بهم ، بل على العكس كانت بالمرصاد لمن يحاول النيل منهم ، حتى بعد شكوى أمها من قسوتهم عليها ، في أحيان كثيرة كانوا يدعونها على الباب واقفة تطرقه دون فتحه لها ، ضاقت ذرعًا في إحدى المرات من دفاع يونا عن أخيها وزوجته غاضبة، فقالت لها:

- يكفيكي إيجاد الأعذار لهم، بصراحة صدقتكِ عندما كنتِ تقولين ربما أنهم غير موجودين بأن تصوري هذا وكأني أفتري عليهم، ما رأيكِ أني كنت أنتظرهم تحت البيت في الحديقة القريبة من شقتهم ورأيتهم عائدين محملين بالمشتريات ، بعد عشر دقائق تقريبًا شهقت بالبكاء، طرقت الباب، وكالعادة لم يفتحوا...

بحيرةِ مَنْ دخل امتحانًا صعبًا دون تحضير فأجاب بما يعرفه لعله ينقذه:

- بماذا أرد ، ما الذي تودين سماعه مني ؟... بعد برهة صمت أكملت: قولي لي كيف أريحكِ؟ إنه ابنكِ وزوجته بنت أختكِ، ليس بيدي حل ، جحودهما بعرفان الجميل واضح كعين الشمس في سماء ظهر صيف عراقي ، لا حاجه للنظر بالبحث عنها يكفي حرارتها إثباتا لوجودها. ربما يستطيع عاطف مساعدتكِ ، فأسرارهم مع بعض!

• • • •

ظفرت نهال بمساعدة زوجها بأمنيتها في إبعاد الجميع عنهم رغمًا عنهم ، كما فعلت أمها بالضبط من قبل ، استمرت العلاقة بين العائلتين كالمد والجر ، مواقف لعينة وأخرى مكررة، بدر منها ما لا يخطر لأحد ببال، لم يثق كل من سمع بما يقال، حتى يخوض بنجاح التجربة لنفسه بطرق مبتكرة منها ، في أحيانًا كثر تفتعل المرض راقدة بالفراش عندما يزورهم أحدهم، قد رآها صدفة منْ

رآها منهم ، تضع سبابتها في فمها كي تتقيء ، لم تخجلها فعلتها عند سؤالها عن السبب ، متحججة بأنه لابد من هذا وإلا قتلها الألم في معدتها! رسالتها واضحة وصلتهم ، زاهر وافقها الرأي دون نقاش أو اعتراض ، بل على العكس كان يردد بحب كل حرف تنطقه وأحيانًا ما يزيد ، طاعته لها كطاعة الجندي لقائده في ميدان الحرب.

(١١)

التبرير لعدم الوفاء ، مضيعة للوقت

أزهار الأشجار الوردي ذات النهايات البيضاء ، أخرى أرجوانية ، غيرها حمراء قانية ، والورود بألوانها الزاهية تفتحت في مختلف الأرجاء معلنة عن دورة حياة قادمة دون استئذان ، أزهارها الضعيفة تتركها مودعة ما أن يداعبها الهواء ، يسعد بنظرها على الأرض المارَّة يومين ، بعدها تصبح سبب تعبه ، إزعاجه ، بل تذمره وهو يحاول إزالة ما علق منها بقدميه!

طبيعة البشر واحدة لا تتغير إلا فيما ندر وشذ ، يحاول الوصول إلى مبتغاه بكل السُّبل ، وعده بحمل جميل من يقدم له العون إلى ما شاء الله! ما إن يخطو تثبت قدماه على سلمتهما الأولى ، يمحو من ذاكرته كل ما علق بها من أيامه الغابرة ، ينفضها عنه كالتراب العالق بالثياب للتو ، ظنه ملك العالم ، قادر بلمسته يحي ويميت ، كاشف الأسرار وخفايا الأكوان ، كيف له حاجة بمن يدعي من رأيه الحقيقة؟

هلّت بُشرى أخبار وصول وفاء إلى برلين بسلام ، بعد انتظار حرق الأبدان والأجفان ، فرح الجميع بلم شمل العائلة من جديد ، وفاء هادئة تتقن باحتراف دور المُحبة المسكينة المنكسرة ، التي لا

حول لها ولا قوة، قوّمها في هذا ملامح وجهها العادية الجمال إلا أنها جذابة بريئة، دائمة القول بدموع كثيرًا ما أغتصب حقها أمام عينيها دون فهم أو اعتراض! في نهاية عقدها الثالث، متوسطة الطول، روح قلبها الخُبث وصنع الفتن بانسيابية دون ترك أي أثر بتسببها في هذه المشكلة أو تلك تفوقت على انسيابية الحية في خبثها... أقامت مع بناتها في بيت أختها يومين على مضض، فضولها لاكتشاف عالمها الجديد الذي لا يحكمها فيه أحد سوى فكرها؛ عجَّل قرارها في تقديم اللجوء في مركزه، رغم الهرج والمرج في المبنى الذي أعطيت لها فيه غرفة هي وبناتها الثلاث كان شعورها كملك في مملكته! المبنى كان متهالكًا، إضاءته قاتمة باهتة متباعدة عن بعض، ممراته كدهاليز السجون، روائح الطعام ممتزجة بروائح أخرى لا تهتدي لها أصل يصعب على أي أنف فك ألغازها حتى لو كان بارعًا فيها، أصوات متداخلة بألسنة مختلفة يحتار العقل في فرزها وتمييزها، أجسام بأزياء عجيبة الأشكال والألوان تتعب العين إذ دققت النظر فيها، عوالم مختلفة الطباع، الثقافات، العادات والتقاليد، وكلٌّ يريد تسيير المركب على هواه! أشدهم تعصبًا لأفكاره ذلك رجل الذي يدعى طاو كان مصدر ذعر بنات وفاء الثلاث بالأخص، هيئته تدخل الرعب والتقزز للنفس، لا يخفي شكله أصوله الأفريقية، طوله تجاوز المتر والثمانين، أنفه كبير أفطس، شفتاه كمعدة طائر التركي كبرًا ولونًا بعد السلق، عيناه مال بيضهما للصفار، شعره أشعث خشن كسيم المستخدم لجلف الأواني، عضلات جسمه كعضلات

مصارع محترف ، صوته العالي المزمجر زاد تلافي مشاركيه السكن التحدث إليه، رائحة لا تُطاق تنفذ عبر ملابسه التي يتفاخر بها ذات رسوم كبيرة صارخة الألوان برتقالي، أصفر لامع... إلخ.

قال إنه اعتنق الدين الإسلامي عن حب وكبر! حاول تعلم اللغة العربية كي يفك رموز القرآن فلم يفلح ، أخذ منه ظاهره وفسره على هواه، وضع شروطًا له ولغيره كأنه المهدي المنتظر!

صبر وفاء عليه طال فخططت بإحكام لشن حرب شَعواء على طاو ، شعورها بالخوف منه لم يرق لها من الوهلة الأولى ، وضعته تحت مجهر عقلها منذ وطأت قدماها المبنى ، حشدت طاقات خبثها كلها في التحريض ، توسوس لهذا ، تهمس بدموع مترقرقة تأبى أن تسيل لذاك، هي المسكينة التي لا تعرف استرداد حقها! زاد حنق سكان المبنى عليه حين تناقلوا روايتها التي سردتها لجارتها التي تعرفها حق المعرفة بأنها ستفشي السر لكل من هب ودب ، لتحبك الدور أمامها وصلاً لمبتغى تمنته، بعينين محمرتين من سيل دموع المنهمرة: أنها في أحد الأمسيات عندما أصيبت ابنتها الصغرى سلمى بنزلة شعبية بسيطة صرعتها طريحة الفراش بسبب بنيتها الضعيفة، حيث طلبت من شذى ثاني كبرى بناتها، ذات الثانية عشر عام تسخين الماء لعمل الشاي بآنية طهي في المطبخ المشترك للجميع ، الذي كان عبارة عن غرفة مستطيلة خالية من الأثاث إلا رفين ألمنيوم على ارتفاع متر من الأرض وضع على أحدهما ستة طباخات كهربائية متباعدة عن

بعض بمسافة قليلة لكل واحد منها عينان ، يقابله توائمة ثبت فيه بأحكام ثلاث أحواض غسيل للأواني والأطباق المسافة بينهن مريحة الحركة، دخلت شذى المطبخ مترنمة حالمة بخُطى متباطئة تشدو وتتمايل بعود بانها متجهة إلى حنفية الماء ، كانت مشغولة بتعبئة الماء بذهن شارد في عالم خيالها الوردي ، وصلت بر الأمان لبلد الحرية والانطلاق دون قيود أو شروط ، بلد احترام الإنسان! من بعد عذاب وحصار لكل مسميات الإنسانية في بلد عاثت به سوسة الخراب والدمار بلا إنذار... سعال سلمى غير المنقطع وتَّر أمها حاولت التخفيف عن الصغيرة ألمها بفرك عظام قفصها الصدري الشبه عارية من اللحم البارزة من تحت الجلد كأنها لأسير يهودي في سجون هتلر!... أغلب الأحيان لا يرتاد المطبخ في مثل هذا الوقت أحد ، انتفضت شذى ، ارتعدت حين قيدتها يدان أحاطتا بها من الخلف فجأة وتحسستا صدرها الغض ، بحركات أثارت التقزز والاشمئزاز في جسدها اليافع ، نزلت إحداهما على مهل إلى أسفل بطنها ، سقطت الآنية من يدها في الحوض بقوة ، تطايرت قطرات الماء في الأرجاء باكيةً ، علَّها تغسل الإثم ؛ لم تشعر هي حينها بالبلل من جمرة النار المتقدة في داخلها غضبًا ، خانها عقلها في تدبر أمرها ، حاولت التملص من قبضته تلك دون طائل ، أحكم تقييدها ، لحظات تجمدت في مكانها خوفًا ، كيف لصغيرة بسنها معرفة رغبة وحش مثله؟ رائحة عرقه اختلطت مع شبقه، أصابها بالدوار ، القيء المستقر بلعومها حرقه، بقوة أكثر شدها إليه ، إحساسها بشيء صلب منه كاد يخترق

لباسها، تصببت عرقًا ، لكمته بقبضتها الصغيرة ببطنه السميكة ، كيف لصيدٍ الهرب من فك مفترسه؟ ... لكمات أمها بقبضتها على ظهره المتتالية وركلاتها له على قدميه باغتته ، صارخة ، دافعة إياه بكل ما أتاها من قوة بعيدًا عن ابنتها ، كان خلاص الطفلة من قبضته: ماذا تفعل يا وغد، أي دين تعتنق وأي أخلاق تحمل؟

شرار تطاير من عينيها داعية عليه ناسيةً أنه لا يفقه من لغتها حرفًا : أفحمكَ الله بنار جهنم ونثر بقاياكَ في كل الأرجاء بآخرتك كما في حياتك ، يا ابن... و... جبان يا قذر كيف طاوعتك نفسك بالاعتداء على طفلتي البريئة؟

عدم فهمه ما نطقت به ، لكنه خمنه ، لم ينبس بحرف ، رغم قوة بنيته، توارى هاربًا من فعلته الشنعاء.

حضنت ابنتها التي مازالت أوصالها ترتعش ولسانها الذي عُقد من هول الصدمة... أسابيع بعدها تنهض مفزوعة صارخة كل ليلة مسرعة لحضن أمها ليشفي جراحها.

نظرات مفترسة متربصة لاحقته من الصغار قبل الكبار دمرته ، نبذته، لم يكمل الشهر اختفى طاو لا يعرف أحد إلى أين رحل!

استمرت في ذلك المبنى العفن ستة أشهر ، تمرسن بناتها اللغة الألمانية... كثرت اتصالاتها الباكية من إجحاف أختها ولاء بحقها وبناتها طالبةً الإنصاف من أهلها ، تفاعل معها الجميع وحاول كل بطريقته مساندتها ، من شدة قهر أختها الصغرى يونا عليها حيث آنذاك لم يمضي إلا بضع شهور على ابتياعها هي وزوجها بيت

كبير بطابقين في إحدى القرى التابعة لمقاطعة سكناهم القديم، بعد محادثة ولاء هاتفيًا وإخبارها برغبتها تلك، فباركت لها خطوتها هذه ضاحكة:

- هنيئًا لكِ رحلة المشقة التي ركبتِها مقتنعة!

لم تأخذ كلام ولاء محمل الجد، عزت ذلك لكثرة خلافتهما، ولحنين يونا في غربتها صدق المشاعر، ظمأها للحب الأخوي الذي لا يربطه إلا نقاء الدم! بالاتفاق مع وفاء توسلت بزوجها، دموع صادقة سبقت طلبها باستئجاره سيارة حمولة صغيرة لجلب وفاء وبناتها وحاجياتهن قبل أعياد الميلاد بأيام، حيث غربتها تضاعفت في هذا البيت بانقطاعها هي وولديها الصغيرين في تلك القرية التي توارثها أصحابها أبًا عن جد فلا وجود للغريب بينهم، حيث زوجها هاني كان يتركها أيامًا بسبب عمله كسائق لنقل المسافرين، وأحيانًا كان يغيب أسابيع ويتركها تصارع قرار إصراره على شراء البيت! هدف ما في داخله رقص للفكرة!.

فرحة يونا لا توصف وهي تروي ظمأ حنينها بوصول أحبابها إليها، أول عقبة وضعتها وفاء بينهما ما أن دهست قدماها عتبت الدار أنها أفشت سر أختهما سها، الذي ما كان عليها إفشاءه، بطريقة مبتذله اقشعر بدن يونا له، سها التي آوتها وبناتها سنين في العراق قبل رحيلها!

عانى الجميع من رفض بلدية المنطقة التابعين لها من تقديم المساعدات لوفاء والصغيرات، بدأ لومها؛ غضبها يتصاعد على

يونا ، حتى لمعت في ذهنها فكرة ربما تكون هي الحل الأمثل للخروج من هذا المأزق ، شاورت يونا زوجها بها قبل طرحها على أختها ، استغلال القانون الذي يوجب البلدية بمساعدة ساكنيها ماديًا ؛ كان جواز وفاء ساقطًا على أرضية غرفة الجلوس حين رسم على صفحاته بقلم الحبر ابن يونا نوح الصغير ذو السنة مما اضطرهم للذهاب إلى دائرة الأجانب لاستخراج بدل جديد عنه! مارست وفاء حقوقها كاملة كأحد ساكني المنطقة... لم تمضِ شهور حتى طلبت وفاء من أختها الذهاب معها لدائرة المساعدات لأمر مهم للترجمة، لن تتوانى لحظة في المساعدة كما في كل مرة. هناك صُعقت بوقاحة الموقف ، حيث طلبت منها أن تترجم حرفيًا ما قالته لها وعيناها شاخصتان بعيني يونا دون أن ترمش:

- إننا ، أقصد أنا والبنات ؛ غير مرتاحات في سكننا ، يجب عليكم توفير لنا سكن أفضل من هذا.

تلعثمت بالكلام وكأنها طفل طلق لسانه للتو ، بترديد الكلمات كادت صدمتها بأختها التي فاجأتها برغبتها أمام الموظفة تقضي عليها لا تعرف كيف تمالكت نفسها وترجمت ما طلب منها!

باغتتها الموظفة بسؤالها الذي أزال بعض من هم يونا:

- كيف يعني إنكم غير مرتاحات؟ لقد خرجنا للكشف عن المكان قبل أن نوافق على دفع الإيجار ، أنتن تعشنَّ في بيت من طابقين مع أختك ، التي تخلت لكن عن الطابق الأول؟... وكأنها قرأت أفكار وفاء تابعت: هل سكناكن معهم محل مضايقتكم؟

متحدية، بدا عليها التوتر كمن يدخل في سباق:

- من الذي يحدد إذا كنا مرتاحات أما لا ، يوجد قياس لذلك حيث لا أعلم؟ هل يوجد قانون يمنعني من ممارسة حقي؟

حيرة يونا سؤال في داخلها الذي لم تجد إجابته! كيف للمرء أن يكون صلفًا لهذه الدرجة؟ دون مراعاة لأي اعتبار ؟... ما جدوى استجداء الحب إن لم يكن نابعًا بصدق من داخل الإنسان؟

توالت طعنات وفاء لإثباتها البغضاء لمن لم يفكر لحظة بهذا لها وذاك عليها ؛ لم تترك لحظه تمر بسلام دون استغلالها لتحشد بمكرها الذي لا ولم تجهد يونا نفسها في كشف خباياه يومًا، متعتها بالتنغيص على فرحة أختها كان شاغلها الوحيد حتى في أعياد ميلاد الأولاد ، شعور يونا بأنها غريبة في دارها! من نظرات الحقد والبغض أصابت قلبها المحب كالسهم المسموم من كل منْ كان بضيافتهم من الأهل! كم مرة سمعتها بمحض الصدفة وهي تدس سم دهائها في عقول بناتها بأن خالتهن متكبرة، كيف لا وهي التي تملك الدار والسيارة وهم النزلاء عندها؟ كم من مرة دعت من الأقارب منْ هم على خلاف مع يونا وزوجها لأنها نزيلة عندهم ومن حقها ممارسة ذلك! رجاها هاني بالصبر عليهم لحين إيجاد سكن لها والانتقال دون نزاع.

• • • •

رغم قسوة أهل يونا عليهما هي وزوجها ، لكنهما لم يترددا لحظة في تقديم العون لمن بحاجته منهم! زارهم راجيًا هادي زوج سها بالاتفاق مع وفاء ومن يقينها سوف لن يردا طلبه في إيجار سيارة خصوصي من مكتب التأجير باسم هاني وقيادتها إلى فرنسا لجلب سها وأولادهم حيث وصلوا منذ يومين إلى هناك، تحقق ما توقعته وفاء ، لكن مع تعديل بسيط أن يكون التأجير باسم هادي وليس باسمه ، هذا اكتسبه من عمله وخبرته بالسيارات ، كي لا تقع المسئولية عليه كاملة لو اعترضهم شيء بالطريق لا سمح الله... تحمست وفاء كانت أول من ركب السيارة دون سؤال أو نقاش، لِمَ لا والفكرة فكرتها ، الفضل كالعادة يعود لها!... تحملت يونا مسئولية بنات وفاء وولديها لحين عودتهم من مهمتهم دون أن يعر أحدهم همًا لذلك!... عقلها ساورته كل الاحتمالات حيث لم يكلف احدهم خاطره لإبلاغها بوصولهم ، أو أي خبر يطمئنها عليهم وكأن الكون خلا من الهواتف!

أيام ثلاث قليت أحشاءها بنار عقلها المتقدة خوفًا عليهم، ولا بُدَّ لها أن تطبخ، تراعي، تلعب مع الأطفال الذين هم روحها، ابنة وفاء شذى ثاني أكبرهن سبقت جيلها في التفكير ، محاولات يونا لجعلها قريبة منها باءت بالفشل ، ذلك بتحذير من أمها ، بأنها تفشي الأسرار ، لا تصون الأمانات ، لا تحافظ على حلم للغير ، غيرتها قاتلة مدمرة لنفسها قبل الآخرين : أنا أفهمها جيدًا ، صعب عليها خداعي بطاقات دهائي، مسكينٌ من يتحداني، تكون أمه داعية عليه يرى أيامًا أسود من لون الغربان، يكون فناؤه على يدي بلا نزاع.

وقت ذاك عقل يونا لم يدلها على سبب ، إلا بعد سنة حين أفشت وفاء بغلّها لأختها في أحد نزاعاتها معها متفاخرة بذلك الإنجاز ، مرددة أن ذلك التحريض ليس مع الأهل فقط بل حتى مع الغرباء : سأتركك تكلمين نفسك كالمجانين.. وقتها ضحكت يونا من تخريفها هذا ، وخصوصًا أنها تضمر لها ولبناتها كل الحب ، وضحت أمورًا جلية لها كان قد أرهقها حلها ، ما انفكت تسأل لِمَ هذا كله؟ ما الذي يدفع بأختها لفعل هذا ؟ أي لحظة عمر تمضي لا نستطيع استرجاعها... تركتها وغلها ففي حياتها ما يكفي لإغراق الدنيا حزنًا.

ظهيرة يومهم الرابع عادوا من سفرهم وقد بان التعب والقلق على وجوههم كأنهم راجعين من حرب ، بعد تناولهم الطعام ونيلهم قسطًا من الراحة لتبرد يونا جمرة تفكيرها :

- هل كل شيء على ما يرام؟ أين هي سها وأولادها؟

نظرت وفاء لها وعيناها تعلنان عن سرٍّ مخيف ، عقدت الكلمات على لسانها آبيةً أن تحل ، دبَّ الرعب في قلب يونا ، غمست مستعلمة عن ذلك السر ، أجابتها أختها بعد تطلعها بوجوه الجالسين ما أن تأكدت بأن أحدًا لم يلاحظ غمستها بدورها مجيبةً في ما بعد...

نطق هاني بعد طول صمت:

- أوصلناهم على مقربة من مركز اللجوء مشيرين لهم على المبنى اتفقنا مع سها على ما ستقدمه من إفادة...

- ولِمَ الاستعجال، لعلكم انتظرتم يومين وبعدها تذهب إلى هناك؟

دون تردد:

- خير البر عاجله كما يقال، من يتحمل المسئولية لو أحدًا من الجيران أبلغ عنهم، وأنت تعلمين مدى فضول الألمان، كل ثانية تمر هي من عمرهم.

بحسرة منْ حرم من حلم كاد يتحقق:

- ما جدوى الكلام الآن؟ لقد حصل ما حصل وحسم الأمر.

اغتنمت وفاء أول فرصة اختلاء بيونا وباحت بما جثم على صدرها خانقًا:

- حمدًا لله، كأن شيئًا تحرك في داخلي جعلني أطلب من زوجيكما أنتِ وسها الصعود لوحدي إلى شقتها في الدور الأول... المبنى كان متهالكًا، بابه ضيق الدرج كان يصر خشبه تحت قدمي مع كل خطوة... نظرت بعيني أختها لتتأكد من صدى عمق كلاماتها عليها: خوفي من السقوط مع حافة السلم حال بيني وبين ذلك الاستناد عليه، كان عُذري في هذا أنها لم تحسب حساب قدومنا، وكان حدسي في محله.

تعجبت يونا مستغربة:

- ومنْ منكم غريبٌ عليها كي تحسب حسابًا لقدومه؟

اصطنعت الدهشة:

- ألم أقول لكِ إنها على علاقة بشخصٍ ما، عندما أتينا إلى هنا! ها... هل نسيتِ؟

- لا لم أنسَ، لكن ما علاقة هذا بذاك؟ ظننت الموضوع برمته كان نزوة، أو نوعًا من الانتقام لنفسها من زوجها الذي خانها وهو في الأساس مقصر بحقها الشرعي... بعد برهة صمت أردفت: تقصدين أنه أتى معهم؟... ماذا عن أولادها؟... بلعت ريقها: أتعنين أنها تفعل كل شيء أمامهم! دون احترام لنفسها؟ ثم من أين لها المال الذي تخرجه به، على حد علمي أنها خرجت من العراق حافية القدمين كما يقال! ولولا مساعدات أمي لها وأطفالها لما وصلوا إلى هنا، كما لزوجها ابن الحسب والنسب من قبلها؟

بملأ فمها كمن يمضغ علكه ويتلذذ بها:

- نعم، هذا صحيح... لقد كان هناك.

وسعت عينيها الصدمة، بان جمالهما:

- وكيف تغلبتما على هذا الموقف الذي لا يُحسد عليه؟

- عندما رأوني فهموا، أبلغتهم بأنني لست لوحدي، تدبر أمره على السريع ورحل... أكملنا مشوارنا، وها نحن هنا.

حاولت يونا أن تصوغ كلمات مناسبة لسؤال حيَّر فكرها، لم تجد أفضل مما نطقت به:

- لا تزعلي مني على سؤالي، لم أفهم إصراركِ على جلبهم إلى هنا وسط أهلكِ، وأنت تعلمين بهذه العلاقة المشينة؟

• • • •

شهور عديدة، جهود مضنية من بحث بين قراءة الجرائد ليل نهار وأخذ مواعيد لوفاء، الذهاب معها إلى كل موعد كي ترى السكن على أمل أن تتم الموافقة على إسكانها في أي من تلك الشقق، وما أن يعلم صاحب السكن أنها تعيش من مساعدات الدولة يرفض طلبها، كادوا يفقدوا الصبر عندما واجه هاني صعوبات من ربَّ عمله بسبب أجازاته العرضية المتكررة كسائق حافلة، شرط عليها أن يكون الموعد القادم الأخير؛ لأنه ليس على استعداد لفقد عمله فمسئولياته المادية كثيرة من إعادة قسط القرض للبنك شهريًا ومصروفات ترميم البيت، إعالة عائلته الصغيرة بالإضافة إلى راتب زوجته بمقدار ثلاث أرباع راتب عملها من دائرة العمل بعد ولادة ولدها الصغير، حيث يستمر هذا حتى يتم عمره الثلاث سنوات ودخوله الروضة.

استجاب الله دعائهم المستمر، حيث حدس هاني لم يخب بأن صاحب الشقة هذه المرة إنسان جشع فأغراه بأنها ستدفع له شهريًا من جيبها الخاص ١٥٠ مارك باليد إضافةً لما ستدفعه دائرة المساعدات، بعد أخذ موافقة وفاء وبأنه الحل الوحيد للموافقة؟

استأجر هاني سيارة أجرة صغير بحضورها كي لا يسمع بعد حين أنه خرج من هذا بصفقة مربحة، رغم حقه المشروع فيها، كسائق مستأجر أو حتى كحمال؛ لكنه لم ينفذ من خبثها مهما عمل! فلا يردع الإنسان إلا أخلاقه وضميره؛ لنقلهم إلى سكنهم الجديد، رافقها في تأثيث الشقة في كل مشوار، في أخر المطاف لابد أن

يكون قد استفاد من هذا التعب وضياع وقته معها!... باركوا لها انتقالها.

في أول مناسبة جمعت الأهل ، بعد إصرار الجميع على البقاء والمبيت معهم ، تم طردهم بعد عودتهم من حفل حضروه جميعًا ، من شقة وفاء المستأجرة في الساعات الأولى من ليلة اليوم الثاني وطفليهما نيام! فاق ولدهما البكر من غفوته مساقًا رغمًا عنه ، فرك عينيه الجميلتين مما زاد حزن أبيه كلماته الغاضبة الكبيرة رغم صغر سنه:

- لماذا تسحبني هكذا ، هل أنا كلب؟

أصبحنا هكذا نتفنن اليوم برد العرفان بالجميل ليتناسب وعصرنا المتطور هذا!

(١٢)

الوقوف بوجه الأعاصير المدمرة ليس شجاعة

اعتذارات، توسلاتها وتبريرات لموقف وفاء ذاك لم يشفع لها عند أختها يونا التي تكره الرياء ونفاق من الغرباء، فكيف لها تقبله من الأهل وأحب الأقرباء؟ قناعتها راسخة بأن أخلاق البشر لا تتغير مهما مرت بهم من ظروف، إذا كان منتشيًا سعادة ويبدر منه ما لا يعقل! فما بالك حين يتكدر؟

رقَّ قلب هاني لمحاولاتها تلك، ترجل من السيارة بعدما ركضت إليهم وتذرعت بأنها كانت هفوة لن تتكرر وفي حينها كانت متعبة، عندما أوصلوا سها وأولادها بعد زيارتهم والمكوث عندهم لعدة أيام إلى وفاء بطلب من الأولى، لم تقاوم يونا توسلات الجميع في النزول معهم حتى لو لبضع دقائق، فهمت غايتهم في إزالة الخلاف بينهما، ولكنهم لم يفهموا مشاعرها!... فيما بعد؛ لترضي يونا عنها؛ باحت لها بالسر الذي ضايقها أكثر وزادها بُعدًا عنها، حينما كانت بصحبتها للترجمة في إحدى الدوائر؛ بأن سها ووسوست بعقلها: كيف لهم النوم على فراشك وأنتِ مازلتِ في الطريق!... لم يشفع لوفاء هذا التبرير عند يونا، فهي الأخت الأكبر التي من المفروض تعقّل منْ يشرد عقله عنه!

المشكلة تكمن في دواخلنا، ما نفع التظاهر بأننا على وفاق معًا

ونحن نضمر الضغينة والحقد غير المبرر لبعض ما أن تسنح لفحة هواء نبخ سمنا بوجه بعضنا ، فالحب لا يقال بل يحس... مشاعر يونا رأس مالها في الحياة ، الكلمة سحرها يمضي يسري في أعماقها يميتها وقادر أن يحييها ، أتعبها فهم تغير طبيعة الإنسان وصعوده نحو الهاوية في مشاعره حتى نحو أقرب المقربين ، مشكلتها التي لم تحلها حنينها الدائم إلى صدق المشاعر ، استعدادها للتفاني دون مقابل لمن تحب، ربما تكون مريضة هي بهذه العقدة!

استقرت وفاء في شقتها تحديًا ليونا وكأنها ندها ، استماتت في إعادة علاقتها بأخيها زاهر وعائلته شهور مضت على تلك العلاقة من خلف يونا ، عادةً وفاء لا تحب صرف سنت واحد لبناتها إذ لم يكن ضروريًا ، فما بالك للغير! إحساسها بأن الحمل زاد عليها من زيارتهم المستمرة لها جعلها تبوح بتلك العلاقة ليونا عزفت على وتر العاطفة بين العائلتين في إعادة المياه لمجاريها لكي تتحمل يونا حِمل المصاريف من أكل وشرب وهي العليمة بصفائها ، نقاءها وبذخها دون حساب لكل من يخطو عتبة دارها ، في نفس الوقت يكون الفضل لها في إعادة تلك العلاقة غير المُسماة!. تجمع الجميع من جديد ، أغلبها كانت في شقة يونا المستأجرة قريبًا من شقة وفاء بعدما باعوا دارهم في القرية بسعر خرجوا منه تقريبًا كما دخلوا بعد ترميمه وجعله قابل لسكن أي عائلة، كان المحرك في تلك العلاقة وفاء، كانت تدنو وتبعد بها كما يشتهي هواها!

• • • •

في ظهيرة يوم صيفي أتى عاطف شاحب الوجه، البكاء قد أدمى عينيه حتى تورم جفناه، جلس بجسم مرتعش كمن تصيبه الحمى، تعتع بكلامه حائرًا، كيف يصوغ الكلمات كي يصل ما في جوفيه، يده ارتعشت وهو يمدها بالرسالة ليونا:

- أقرأيها... لعلك توفري عليَّ عناء الحديث.

تناولتها من بين يديه مرعوبة:

- ماذا فيها؟ إنها من المحكمة العليا في ألمانيا... لم أفهم ما دخل هيفاء بهم، إنها تسكن في إسبانيا؟

- لا تتعجلي الأمور، أكملي قراءتها وستفهمين.

- وماذا أفهم؟

- لو أستطيع الحديث لما أعطيتكِ إياها.

تساقطت دموعها كالمطر الذي يفاجئنا على حين غرة؛ نحت الرسالة جانبًا، كظمت شهقاتها على مضض، لم تستطع تجفيف خديها من الدموع، شحب وجهها وهي غارقة في عالم لا يعلمه إلا الله، صمت كصمت الأموات عمَّ المكان... مضى من الوقت ما يكفى كي تدرك وجودها بينهم:

- هذا مستحيل، إنه هراء، بل ضربٌ من الخيال، كيف يعني؟ إنها لم تتجاوز الخامسة والثلاثين بعد.

نفذ صبر وفاء، صرخت ضاحكة:

- إنكِ تستحقين جائزة على إتقانك الدور، هل تصدقين أني لحظات الصمت تلك تصورت فيها ما لا يعقل؟

لم تسعف يونا كل قواميس الكلمات حتى تعبِّر عن ألمها واستخفاف أختها بمشاعرها التي هي رأس مالها ، فلاذت بالصمت كعادتها عندما تتفاجئ بما لا تتوقعه... أجاب عاطف مرغمًا :

- بل توقعي... ما لا تتوقعه.

بطبعها الغالب في أن تكون هي منْ يحرِّك اللعبة:

- إنك تمزح... أليس كذلك؟

- وهل في مثل هذه الأمور مزاح؟

- ما قصدك؟

- نعم... ما فهمتِ صحيح ؛ لقد تحققت بنفسي من هذا عن طريق رقم الهاتف الذي في أعلى الرسالة وأجابوني بالتأكيد على فحواها بان هيفاء قد كتبت كل ما تملكه لدار الأيتام ، كما لا يخفى هذا طبعًا نابع من حرمانها من عدم الإنجاب ، بسبب عمليتي القلب التي أجرتهما وذلك سيكون بعد وفاة زوجها ، كان هذا قبل سنة كما مدون في الرسالة.

لابد لوفاء تحشيد غضبها ضد شخص ما ، هذه المرة كان بيتر زوج هيفاء ، دموعها سبقت كلامها :

- النذل... مسحت دموعها : حرمنا منها حتى في أخر لحظات وجودها ؛ أنا لا أستبعد أن يكون هو منْ قتلها ؛ لابد لنا من إخراج جثمانها وتحليله كي نتأكد من سبب الوفاة.

صعقت يونا لاتهام زوج أختها ، خرجت عن صمتها :

- أتقصدين... لم يكن يحبها؟ أن كان كذلك ، منْ يشعر بهذا ، أنتِ أم

هي؟ لِمَ كانت لتستمر معه؟! الكل يعلم مقدار حبها لأمنا... أي أعني لما جافتنا من أجله وربما من الأصح يقال جافت لكثرة المشاكل التي حصلت عندما كانت تأتي في سكنها القريب منكما أنتِ وولاء!

تدخل عاطف كي لا يتطور الحديث ويسير في منحى آخر:

- بغض النظر عن هذا كله، كانت وصيتها أن يُحرق جثمانها.

شهقت وفاء:

- هذا يؤكد كلامي، ابن...... حتى لا يترك دليل ضده، لماذا سكت طول هذه الفترة ولم يبلغنا في حينها؟

دافعت يونا وحرارة دموعها السائلة تحرق خديها:

- هل هناك ما يدفعه لارتكاب جريمة قتل بمنْ تحبه وهي لم تعارضه البتة؟

حتى يقطع عاطف الشك باليقين:

- بعد محاولات عديدة منذ حصلتُ على هذه الرسالة أمكنني بتوسلات منقطعة النظير؛ الوصول لرقم هاتفه والتحدث إليه، من صوته يشعر المرء مدى حزنه وألمه الذي ألمَّ به! لقد رقد في مستشفى العلاج النفسي لمدة ستة شهور كي يتقبل رحيلها عنه!

(١٣)

ثورة التكنولوجيا قتلت أحاسيسنا

أقتنى هاني جهاز كمبيوتر باهظ الثمن في عام ١٩٩٨ ، كبير الحجم، كان ويندوز ٩٥ ، بعد تردد كثير حينها لم تتجاوز إقامتهم في البيت ستة شهور ، وترميمه شغل كل وقتهم ، تحدث إليهم الأصدقاء المقربون لاقتناء هذا الجهاز لقدرته على تصحيح الكلمات دون الرجوع لقاموس اللغة وتضييع الكثير من الوقت في البحث ، كانوا يتجمعون حول هذا الجهاز العجيب لاكتشاف أسراره؛ أبدى كل منْ زارهم تعجبه من قدرة هذا الجهاز!

في عام ١٩٨٣ وقتما كان إنساننا العربي منغمسًا بهمِّ الحروب وكيفية الفرار منها ، كانت أميركا تخطط لغزو العالم بما يسمى بالتكنولوجيا! في تلك السنة أُخترع أول جوال بعدما كان محل سخط وإزعاج عندما يرن لكل شخص يكون على مقربة منَ منْ يتحدث فيه ، تتالى تطور مذهل بسرعة البرق في مجال التكنولوجيا في الأجهزة عامة وفي جهاز الكمبيوتر والمحمول خاصة؛ بعد ١٥ عام من أول اختراع له ومن وضعه في بعض السيارات بحجمه الكبير إلى تناقله بين الأيادي بحجم أصبح بالكاد يرى من بين الأصابع!

تخرج عاطف كمؤسس كهربائي حيث تعلمه المهنة أخذ من عمره ثلاث سنوات بين نظري في المدرسة وتحمله العملي بصبر أيوب في الشركة التي تعاقدت معه لمنحه الشهادة ، لما لاقاه من سوء معامله لأنه أجنبي ، إدعاءهم بعدم فهمه اللغة رغم إجادته لها بما لا يقل عن ٧٠% هو سبب انزعاجه ؛ نال هدفه بمنحه شهادة التخرج ، لم يطق العمل معهم يومًا أخر ففر هاربًا دون لحظة تفكير في العدول عن القرار.

حسب القانون الألماني الذي ينطبق على كل شخص يسكن هذا البلد ، حق له المساعدات بما يقارب ٦٠% من راتبه من دائرة العمل مشروطة بفترة محدده لا تتجاوز الستة شهور مع إثبات البحث عن عمل بنفسه أو برسائل تبعثها له بعناوين وأرقام هواتف الشركات التي تبحث عن عمالة ، في بعض الأحيان يكون بعيدًا عن الاختصاص... استمر هذا الحال شهورًا ، قبل انتهاء تلك المدة اضطره قبول العمل في شركة تصليح أعطال في جهاز حديث الاكتشاف يسمى المحمول بعيدًا عن اختصاصه ذاك! فاجأ عاطف أختيه يونا ووفاء بأحد زياراته لبيت يونا قبل انتقال الأخير بأسبوعين إلى شقتها ، مادًّا يده لهما بجهاز بحجم كفه متباهيًا ، متنبئًا:

- هذا هو المستقبل القادم... أخر اختراع وصله العلم سيتطور أكثر إنه مازال في أول مهده سيغزو الأسواق بل يوميات حياة الإنسان فلا يستطيع الاستغناء عنه.

ردَّت يونا ضاحكة:

- أكيد... كيف لا وأنت تروِّج له منذ الآن؟ لو أصبح ما تقوله واقعًا يعني ستكون خاتمة الإنسان والإنسانية، انظر كيف أصبح كل منا يفكر بنفسه، حتى لو على حساب أخيه وهو يعيش معه دون انفصال عنه بتكنيك متطور ، فما بالك لو عاش في عالم افتراضي لا يراه إلا هو يشبع رغباته دون رادع؟

كي لا يفوت وفاء مشاركتها في الحديث:

- إنه جهاز عجيب، له قيمته، أراه ضروريًا في حياتنا، يعني مثلاً لو تأخرت إحدى بناتي لسبب ما يمكنها إبلاغي كي لا أقلق.

الانزعاج وتَّر صوت يونا:

- يعني هذا هو كل همكِ ، ماذا عن البشرية الساقطة بهاوية المخترعين ؟ سيسيروننا كالإنسان الآلي بلا محال ؛ حينها لن يكتف الشخص منا بمحمول! عندها عدد الأجهزة المصنعة ستفوق عدد سكان الأرض دون شك سنصبح مراقبين وستحسب علينا أنفاسنا!... بذهن شارد ، كمنْ يخاطب أشباحًا لا يراها إلا هو... أكملت : حتمًا الطمع هو من يسيِّر الشركات المصنعة وليس راحة الإنسان ؛ كل يوم تطوير واكتشاف جديد من أجل مص دمائنا، تهافتنا لاقتناء أحدثها يسقطنا في شركهم! سيصبح الحديد يحركنا بإيعاز منهم ، سيجف الإحساس فينا ونمسي كالصحراء متشققة الأرض عداها المطر ونساها ، الأنا طبيعة متأصلة في الإنسان بنسبها المتفاوتة، فعند العمل على تعميقها

فيه لا إراديًا سينصاع لها طوعيًا، سيجعلون نبض الحياة سريعًا كي لا يتركوا مجالاً للتفكير ، منْ يستوعب ما يجري سيكون شاذًا منبوذًا عقابًا لتفكيره! لم يكتفوا بتدمير الأرض بل ربما سننافس الطيور في السماء باختراع السيارات الطائرة فتفر هي الأخرى هاربة من جشع الإنسان!

(١٤)

ما يموت مستحيل أن تبعث الحياة فيه ، إلا ما ندر !

موت مشاعرنا ونحن أحياء صعب لا يطاق ، كل شيء يصبح سيان ، وهمًا يداعب الفكر نجري وراءه بلا استراحة ، لا الوهم أصبح فيه شهد الحياة ولا ما مات رجع عاش!... شردت يونا تحدث نفسها وهي جالسه بكدر بعد عودتها وزوجها من السوق ، خرج كعادته على عجل دون أن تفهم لِمَ ، أضناها من قبل كثرة السؤال، فمن منا يعرف حقيقة دواخل الإنسان غير الله؟
بعدما رصَّت ما جلبا معهما كل في مكانه، داخلها يبحث سبب ما حدث كي ترضي نفسها حتى تستمر على روتينها ، أملها لم يمت لعله بيوم يفيق ، يقف لحظة يراجع ويحاسب نفسه، لكن هيهات ، هل سمعت عن ملك عانى جوع شعبه؟ كيف للظالم أن يعتذر عن مظالمه وهو الذي لا يخطئ؟ هي تأبى أن تطالب بحقها ، روح قلبها أن يشعر من معها بمشاعرها دون نقاش، هو خطأها وستدفن معه، هل من سبيل للتغيير؟ قولها دائمًا لا تطلب ما تنتظره عندها سيفقد معناه ، فالأفضل من رأيها إذا لا يطلب! عطاؤها الذي لا ينضب سبب شقاءها ، عنائها في الكون... سعادتها إدخال البهجة بنفس كل من يعرفها دون مقابل أو شرط ، كل ما ترنو إليه الاحترام.

استرجعت كل خطوة كشريط فيلم أمامها ؛ ترجلا من سيارتهما ، أسرعت خطواتها تسبقه كي تضع قرص بلاستك في مكانه حتى تفصل عربة السوبر ماركت عن صاحباتها ، وصل إليها ، دخلا معًا ، وقفت عند الفاكهة تختار ما يناسب زوجها وولديها ، رمح هو بين الرفوف يبحث عن ما تشتهيه نفسه وما تتوق له روحه ، وضعا كل ما ناسبهما في العربة ، وعند مجمدة المرطبات وضع كل ما اشتهاه مع ما تبضعا ، وقفت هي مترددة أمام مرطبات إيطالية الصُنع كانت معمولة بالفستق وأخرى بالفراولة ، سألته بحب: لنأخذ هذه أيضًا لأنها تعجبني ، على عجلٍ ردَّ:

- الشركة المصنعة لا تعجبني ولا أود إفادتهم ، ولا أثق بتصنيعهم.

حزنت في أعماقها ، ترددت في اتخاذ قرار ، بعد سنين العذاب الممزوجة بساعة قلائل بالفرح لم يكلّف نفسه حتى لحظة بالتفكير في إراحتها بجواب يبرد قلبها ويشعرها أنه من أجلها يأتي على نفسه قليلاً ، أخذتها على مضض ، ملامح عدم الرضا بانت واضحة على وجهه ، حتى للذي لا يعرفه.. أكملا ما نقصهما ، وقفا في طابور الدفع ، وضعا كل المشتريات لدفع ثمنها ، قبل أن تحاسب بالصدفة مرَّت إحدى العاملات بالقرب من بداية الشريط الطويل المودي للمحاسبة موجهة امتعاضها لكل من في الطابور الطويل بصوتٍ عالٍ:

- لمن هذه المرطبات ؟ ولماذا تركها هنا ؟ لو بقت دقائق هنا بعد لذابت كذوبان الثلوج تحت أشعة الشمس الحارقة ووجب رميها بالنفايات ، وهذه خسارة للمحل مائة بالمائة.

رفعت يونا رأسها لترى أي مرطبات تعني العاملة، لتفاجأ بما اختارته هي فقط، دون تحليل أو تفكير لحظتها أجابتها:

- إنها لنا، شكرًا لكِ، وضعها زوجي جانبًا لحين يفرغ مكان لوضعها على الشريط، يبدو أنه قد نسيها، ليس عن قصد طبعًا.

- أرجو إخبارنا عند تغيير رأيكم، إننا مستعدون لإرجاعها في مكانها، هذا صُلب عملنا الذي من أجله نتقاضى أجرنا.

- الرأفة حلوة، على مهلك علينا، قلنا إننا بحاجة لها، وإلا ما جلبناها إلى هنا.

لم تجب العاملة بأكثر، من منطلق معرف في ألمانيا: الزبون ملك!

• • • •

عندما يداهمنا التعب، يدق ناقوس الخطر في أجسادنا رغمًا عنا، إذ يشل تفكيرنا، تركيزنا في استيعاب ما يدور من حولنا، هكذا نحن البشر نجابه متحدين حتى أنفاسنا وكأننا خالدون!

زامل رجل في منتصف الستين من العمر، قصير القامة، أصلع الرأس، ممتلئ الجسم، عيناه تشع حبًا وصدقًا لكل من يعاشره، لا يبخل بنصح لمن يقصده، إنسان رزن القول والتصرفات بحكم عمله كمدير مدرسة ثانوية للشباب في العراق لفترة لا يُستهان بها، كان قدوة يحتذى بها في سلك التعليم، زوجته هناء لا تقل عطاءً وحبًا عنه. ما كان يخفف وطأة غربة يونا زياراتهما المستمرة لهم

بعدما تعرفت عليهما بمحض الصدفة عن طريق إحدى جاراتها ما أن علمت أنهم من نفس البلد ، كانا يعتبرانها إحدى بناتهم الأربع اللواتي سكنت كل منهن في بلد بعد الهجرة كحال أغلب العراقيين المغتربين! كانت يونا تحسب بفارغ الصبر عودتهما عند زيارتهما إحداهن ، لم تعرف كيف تحملت غيابهما الطويل لمدة ستة شهور عندما زارا ابنتهما في أستراليا وذلك بسبب بُعد المسافة التي يصعب قطعها باستمرار ، صعوبة تحملهما طول مدة السفر التي تتجاوز يومًا ونصف في الطريق كي يصلوها وهما في مثل هذا السن! ليطفئوا ظمأ الحنين ولو لفترة ، الكل أصبح غريبًا حتى عن نفسه!... ما كان يهون بعدهما عليها استمرار التواصل معهما عن طريق ما يسمى بـ"الأي باد" أحد بدع التواصل الاجتماعي صورة وصوت يوميًا تقريبًا.

استقبلتهما عند عودتهما حيث أخذت أجازة لذلك اليوم من العمل بأحرِّ القُبل وألذ ما جادت يداها به ، لم يمكثا أسبوعًا في شقتهما حتى أتتهما مكالمة هاتفية من الأخرى في إنكلترا تبلغهما فيها رحيل والد زوجها ، فحجزا تذكرتيهما على عجل ، بقيا عندها أسبوعين حتى انتهاء مراسم العزاء ، اتصال يونا كان مستمرًا...

جلبتهما من المطار صباح ذلك اليوم ، عاد هاني من العمل بعد عودة ولدهما من المدرسة بعد تناولهم وجبة الغداء بساعة ، جلستهم الحميمة مع شرب الشاي على الطريقة العراقية بالستكان (قدح زجاجي شفاف صغير الحجم) ، قطع الكيك الخارجة من

الفرن للتو ، لم تخلو الأجواء من ضحكاتهم العالية المستمرة بالدعابة والمزح، بقيا عندها حتى المساء، استأذنهم زامل للذهاب لشقتهم بعد ما أخذ التعب منه مأخذه وهدَّ حيله، عرضت عليه يونا أن يرافقه ابنها سامر الذي بلغ السابعة عشرة من العمر حتى باب الشقة لقلقها عليه، فلم يخف عليها عدم تركيزه حتى في الحديث! رغبته في عدم إتعابهم أكثر جعله يرفض عرضها، فهو مازال قادرًا على فعل ذلك لوحده ، خضعت لرغبته مجبرة كي لا تضايقه.

لم يمض دقائق على نزول زامل من شقتهم حتى رنَّ محمول يونا، بذعر واضح بعد قراءتها اسمه على شاشته بعجل:

- ها... عمو ما الخبر؟ هل هناك مشكلة لا سامح الله؟

بارتباك وحيرة:

- يوجد شخص ما في بلكونة شقتنا...

- ها... ما هذا الذي تقوله، هل تمزح أم أنها حقيقة؟ على أي حال انتظر في الخارج، لا تقترب من الشقة ولا تحاول الدخول، فلا نعلم إن كان لوحده ومن يكون؟ هاني وسامر في طريقهما إليك، أنا بدوري سأتصل بالشرطة حالاً، لا تقلق.

- نعم... إني أراه جالسًا أمامي ويدخن!

- يا للوقاحة... جالس هو في بيت الذي خلفه؟

- لا أعلم من أين له كل هذه الجرأة؟ إني أرى زوجك وولدك قادمين نحوي... ثم موجهًا كلامه لذلك الرجل: بالله عليك ما

الذي تفعله هنا؟

- عمو... أقفل الخط كي أستطيع الاتصال بالشرطة...

- مساء الخير ، إني يونا... أسكن في..... أتصل من أجل أقاربي السيد زامل، الذي يسكن في الشارع.... يوجد شخص غريب في شقته... هل لكم الحضور ومساعدتنا؟

- للأسف لا نستطيع فتح أي محضر إلا بتقديم بلاغ منه شخصيًا.

- وهو كذلك، سيكون عندكم بعد دقائق.

ما أن ضغطت على زر الإغلاق حتى رنَّ زوجها هاني مختنقًا بضحكاته بالكاد يتكلم:

- ها...ها... إن الرجل ها...ها... جالس في بلكونة شقته ها... ها وليس في بلكونة شقة ها... ها... العم زامل.

(١٥)

حياتنا أكبر خدعة، ملفوفة في إحدى نهايتيها بحبال الوهم، وبنا من طرفها الآخر، ترخيها لنا ضاحكة، خذوها ربما تنالوا ما تحلمون! إننا وقدرنا بأيها نبدأ، لعله أسمكها، أقواها ثباتًا، نسحبه إلينا يطاوعنا مبتعدين عنها ثملين بنشوته متمادين، طامعين بالأكثر تزيدنا هازلة، نزداد جشعًا ناسين أننا فانون غير خالدين! تهزأ بنا، ترجعنا ساخرة، تلفه حولنا، خانقه، ساحبتنا عنوةً لما بدأنا أو إلى المجهول!... مكررة هي منذ وجود أبينا آدم على الأرض مع فارق بسيط لتطور الإنسان بحكم ابتكاره حاجياته بشكل خرافي غير مُصَدق ببعض الأحيان، مهما حاولنا تغيير وجوهنا، أجسادنا، ملابسنا، بيوتنا كل شيء أصبح مُصَنعًا ومنمقًا! لكن دماءنا مازالت حمراء، ذرف الدموع في المصاب هو الذي يخففه علينا، الضحك علامتنا للسعادة والفرح لا بديل لنا عنها، كم أقلق يونا خاتمتها كيف ستكون مع ولديها اللذين ذابت روحها وأفنت جسدها من أجلهما؟ فإننا لا نختار أقدارنا بل هي التي تختارنا!

للتكفير عن ذنبه بحق زوجته؛ وافقها هاني طلبها في مساعدة والدتها في إيجاد سكن لها قريبًا منها، ذلك بعد عناء ورعب استمر شهورًا عندما كانوا يصحون بالليل على رنين الهاتف ليخبرهم رجال الإسعاف بنقلها إلى المستشفى لحالتها الطارئة، حيث بعد المسافة ومخاطر الطريق بفكر مشدود بتخيلات ربما تصيب،

بعدما تخلى الجميع ورحل بعيدًا عنها ، في ليلة وضحاها دون أسباب واضحة وكأن هواءً سحريًا خفيًا وسوس بينهم ، تنافروا متباعدين واحدًا تلو الآخر!

لقد طلب عاطف الهجرة إلى كندا رغم أن زوجته ألمانية! قدَّم ضمانات لا حصر لها من أجل ذلك وكأن بقاءه فيه خاتمته ، ساعدته في ذلك أمه عندما أعطته كل ما تملك من مال وذهب كي يبيعه حصيلة سنين عمرها هي وزوجها ، أيامها سأل أخته يونا إن كانت ترغب بشرائه بسعر لأي شخص غريب! وافقت فقط كي تحتفظ ببعض منه للذكرى من أمها ومن العراق رغم معارضة زوجها لها ، ليقينه بأنها ستركنه في أحد أدراجها إلى ما شاء الله... عصف غضب لأم بابنها عاطف عندما علمت باتفاقه ذاك مع أخته مهددة في العدول عن مساعدته إن باعه لأخته! أعتذر هو في وقتها إلى يونا ، أبلغها الحقيقة التي آلامتها كثيرًا ، داوتها بالسكوت دون أن تعب بحرف... هرب زاهر وعائلته إلى منطقة هامبورج في أقصى الشمال من ألمانيا... رحيل سها وأبنائها إلى المجهول؛ حتى تبين أهلها بعد قلقهم عليهم أسابيع حين عطفت وأطفأت نارهم باتصال هاتفي تبلغهم فيه أنهم بخير وقد استقروا دون عودة في النرويج مع حبيبها الذي لم تتخلى عنه! وقتها لم يمضِ على إقامتهم في ألمانيا ستة شهور ، رغم وعودها المؤكدة لأمها بأنها لن يبعدها عنها إلا المنية!

• • • •

نزلت أم نبيل راقصة طربًا وهي تزف خبر قدوم سها وأولادها لزيارتها الشهر القادم من شقتها في دورها العاشر ، بعد عناء ومشقة يونا وزوجها في استأجراها لها ، إلى الطابق الخامس في العمارة نفسها حيث تسكن يونا ؛ بعد سفر سها أكثر من سنتين.

لمحت يونا نظرات غريبة في عينيها ، بنبرة صوتها تحديًا وكأن يونا منْ وسوس لسها بالرحيل! حرق جوفها ذلك الشعور ، لملمت جراحها بقوة النمر الجريح متمنيه من قلبها:

- إن شاء الله يصلون بالسلامة وتقضين وقتًا ممتعًا معهم، ربما لا أكون هنا؛ كما تعلمين اشترينا بيتًا بالقرب من المحل الذي نعمل فيه، المسافة ليست بالقريبة بين ٧٠ إلى ٨٠ كيلو متر من هنا ، بعد أن عجزنا عن إيجاد ما يناسبنا مساحةً وسعرًا ، كما ترين سامر أصبح رجلاً لا تسعه الغرفة هو وأخاه، كما أن نوح في بداية دور المراهقة ولا أستطيع تركه النهار بطوله لوحده بعد قبول سامر في الجامعة بإذن الله.

بفخر المنتصر وكأن يونا عدوها الذي تتحين الفرص للانقضاض عليه:

- لا يهم، إنهم آتون من أجلي فقط، كما وعدتني بأخذي معهم إلى أختكِ في النمسا لقضاء ثلاثة أيام هناك، ومن ثم إلى إيطاليا لمدة أسبوع لغرض النزهة معهم جميعًا ، وستكون وفاء وبناتها معنا أيضًا.

- أتمنى سفرتكم يملأها السعادة والفرح إن وفت بوعودها.

تجهم وجه أمها وخسرتها بنظرة كادت تقتلها:

- هل تعتقدين أنكِ الوحيدة التي تعرف الوفاء والحب، إني واثقة بأنها لن تتخلى عني، هي فلذة قلبي ونور عيني.

قاطعتها يونا:

- هدئي من روعك يا أمي، منْ قال غير هذا؟ كل ما في الأمر تمنيت أن تصدق هذه المرة في ما تدعي، هل تشكين ولو للحظة بأني لا أود سعادتك بعد تعب السنين من أجلنا؟ على العموم كما يقال: إن غدًا لناظره قريب.

• • • •

بعد تخرج ابن يونا من الإعدادية بمعدل يؤهله للالتحاق بجامعة مرموقة كمهندس بكل أنواعها؛ تقدم لطلب موعد لإجراء اختبار لموهبته في البعض منها كمهندس ديكور... جاءه الرد بالموافقة وتحديد موعد من أجل ذلك.

(١٦)

حين يساورك الشك تبني قصورًا من الأوهام
وتعصف بخيالك الأحقاد وينذر بحياتك الدمار ،
حينها تغم عيناك عن الحقائق الماثلة أمامك !

مساء كانت سماؤه صافية ليوم صيفي حار ، انشغال يونا في ضب الأغراض بصناديق لم يتح لها فرصة التمتع بجو ذلك اليوم النادر الحدوث ، رنَّ الهاتف ، تعثرت بالصناديق وهي تبحث عن طريق من بينها ، رفعت السماعة ، أتاها صوت أمها ونبرة الفرح تغمره :

- اصعدي لي في الحال ، هناك مفاجأة بانتظارك.

أخذت نفسًا عميقًا كهدنة المحارب :

- لا أستطيع الحضور ، إني أسبح في موجة من الكراتين ولا يوجد في الشقة موضع قدم فارغ ، اعذريني لعدم القدوم ، إن كان لابد انزلي أنتِ.

كالمنتصر بعد حربٍ شعواء :

- لا ، بل يجب أن تأتي أنتِ وأولادك ، لا أستطيع إنزال المفاجأة معي.

كمنْ يبلع عظمًا ويبقى عالقًا ببلعومه:

- قلت لكِ يا أمي : لا أستطيع... ما الأمر ؟ ألهذا لحد ضروري قدومي؟

- عملتها قصة عنتر ، قلنا لك تعالي ، إذًا تعالي.

بلعت غصتها:

- سأحضر بعد قليل.

تركت كل شيء على ما هو عليه ، ارتدت ما يناسب الخروج على عجل ، انتعلت نعلها الأسفنجي الوردي عند الباب وهي تضع المفتاح فيه ، مستعجلة ولديها للمغادرة كما أمرت أمها ، توتر أعصابها جعلها لا تطيق انتظار المصعد دقائق فحسبتها دهرًا! شهيقها وزفيرها بتأفف ضايق ولديها ، رجياها بطول البال ضاحكان:

- ماذا تفعلين لو أن في شقة بيبي (الجدة) نمرًا ينتظرنا؟

تسايرًا مع رغبة ولديها ضحكت:

- بيبي والنمر... يصلح عنوان فيلم.

ضحك الجميع وهم يصعدون المصعد.

فتحت الباب طفلة ممتلئة الجسم ذات ثلاثة أعوام تقريبًا ، شعرها الكستنائي منساب على كتفيها بنهايته الملفوفة جعل بشرتها تبدو أبيض مما هي عليه ، وقد تدلت خصلة قصيرة منه على عينيها العسليتين وكادت تخفي وسعهما ، تنورتها الموردة القصيرة وقميصها الأبيض ذو الأزرار الذهبية والدانتيل على جنبيه أظهرها أكبر من عمرها... سأل نوح متأكدًا:

- هل رننا الجرس على شقة أخرى بالخطأ؟

وجهت يونا سؤالها للطفلة وهي تمسد على شعرها:

- من أنتِ يا حلوة؟

تدخل سامر وكرر سؤال أمه بالألمانية... بهتت الطفلة بوجهه، أجابت بعد تردد... تأتأت بالعربية:

- إني... "جيسي" ابنة... سها

تبادلوا النظرات، الحيرة علت ملامح وجوههم متسائلين دون جواب متى كان هذا؟

دخلت يونا إلى الداخل وهي تحملها مقبلة، لأنها لا تستطيع مقاومة رؤية طفل دون تقبيله أو المزاح معه... سلام بارد كبرود الأموات من أختها لها، لم تستغرب يونا كثيرًا مصالحة نفسها مخاطبة فمنْ رابطة الأخوة لا تعنيه توقع الأكثر منه... قبلت ابنة أختها الكبرى ثم أخاها الأصغر، سألت عن أخيهم الأكبر، أتاها جواب أختها كضرب بالمطرقة على الرأس:

- لماذا تسألين عنه؟... لكي تسكتها وتمنعها في الغوص بالأعمق: إنه بخير، لديه امتحان أخر السنة لذا تعذر حضوره معنا.

جلست يونا على مضض هي نفسها لا تعرف لماذا بقت؟ دار حديث ثقيل كحديث غرباء لا تجمع بينهم مودة، تلافيًا للإحراج أكثر؛ همهمت:

- أستأذنكم... لا بد لي من إكمال ضب الأغراض، ليس لدي متسع من الوقت.

أجابت أمها متباهية:

- سوف أذهب مع سها والأولاد إلى وفاء.

همت واقفة وحزنها يعتصر قلبها على ما آلت إليه علاقة الأخوة، مودعة:

- أجمل الأوقات وأمتعها.

خرقت الضحكات أذنيها من خلف الباب؛ مستغربه بلعت دموعها قبل أن تنحدر على خديها مدارية ذلك عن ولديها وهي تردد مع نفسها مواسية: ما يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.. حسبي الله ونعم الوكيل.

• • • •

رنين الهاتف المستمر أفزع يونا... انتفضت مهرولة من سريرها نصف مفتوحة العينين، خافضة الصوت بتثاؤب:

- ألو...

صوت سها الآمر قضى على ما تبقى من نعاسها:

- اتصلي بالإسعاف حالاً كي ينقلوا أمي إلى المستشفى.

بشهقة:

- ماذا بها... أمكِ... أين هي... أليست عندكم؟

- كانت عندنا، آتيت معها إلى وفاء أمس؛ لكنها لم تتحمل دخان السجائر، تأزمت حالتها وقررت الذهاب إلى شقتها عصر اليوم وقبل قليل اتصلت مستنجدة بنا، لذا اتصلت بكِ.

- صراحةً لم أفهمكِ جيدًا! كنتُ نائمة، أعذري بطء استيعابي،

قلتِ إنها اتصلت بكم مستنجدة فلمَ تتصلين بي ؟ إن كانت تود مساعدتي لاتصلت فرقمي هاتفي تحفظه عن ظهر قلب من كثرة استخدامه.

انفعال مصطنع كي تخفي صلب الحوار كمنْ ينتظر رد الجميل:

- الله وأكبر ، أمي مريضه تنتظر العون وأنتِ تتحدثين هراء ؛ ما قلبكِ ؟ حجر! لو سمعتِ أنفاسها لما توانيتِ لحظة ، هيا اطلبي الإسعاف لها.

تحديًا لأختها وردًا لكرمتها:

- لن أفعل ؛ أنا آسفة لن أفعل ، أمكِ تنتظر العون منكِ فلا تتأخري عليها... تصبحين على خير.

• • • •

اتصلت يونا بالإسعاف راجية الاستعجال لعلمها بحال أمها ، ارتدت ما تيسر تحت يدها من ملابس ، ركضت تضغط على زر المصعد مرات ومرات تتعجله وكأنه يفهم! أدارت مفتاح قفل شقة أمها ، دخلت تتفحصها ، ارتبكت وهي ترى آثار الدم الطري على طرفي زوايا فم أمها وعلى حواف أنفها ، دنت منها تمسحها مهدئة:

- الإسعاف قادم لا تقلقي ، خذي نفسًا عميقًا وبهدوء.

بدموع منهمرة وأنفاس صعب التقاطها:

- كيف علمتِ بأمري ؟ لقد فصلتنا الهاتف من الكهرباء ، لأن الخط

أصبح مشغولاً بعد اتصالي الأول طول الوقت ، حتى قبل حضوركِ بلحظات.

حُبكَ لشخص لم تختره أن يكون أباكَ أو أمكَ؛ غريزي، لا سلطان لكَ عليه، الارتباط معه بقيود حديديه قفلها غائر في أعمق محيط، وضوح التمييز بينكَ وبين منْ يصرح بقبح فاضح: أنا ومن بعدي الطوفان من الأخوان شعور مقيت يصعب تحمله فلا تحرق حبكَ في التفتيش عن ما لا تفسير له... كان بود يونا الصراخ ليخرج ما يفور بداخلها، لكنها بلعت نار غيظها وتركتها تحرق جوفها في يوم عيد ميلادها وقد غفل الكل عنه! بالكاد منعت دموعها؛ مخففة:
- لماذا لم تتصلي بي؟ إن مثل رد الفعل هذا ليس بجديد عليّ؛ فقد تدربت على الأصعب يا أمي، على العموم كل شيء سيصبح على ما يرام، لا تشغلي بالك.

أنقذها رنين جرس الباب كي يرحمها من عذاب نفسها ويعيدها إلى واقعها معلنًا عن قدوم الإسعاف؛ تدبروا أمر نقل أمها للمستشفى بعد إجراء اللازم، لحقت سائقة سيارة العائلة الخصوصي بسيارة الإسعاف... عادت بعد استقرار حالة والدتها إلى الدار والكل غارق في نوم سرمدي... أوت إلى فراشها ببال مشغول على والدتها، غيظها من تصرف أختيها والبحث عن إيجاد تفسير لما عله يشفع، بتدقيق استرجعت ما تفوهت به أختها دون طائل؛ أبى النوم أن يخفّف عبء حملها ففارق جفنيها.

بزغت الشمس بأشعتها تعلن عن يوم صيفي حار لبلد بارد الطقس

تجمدت مشاعر المغتربين فيه فأصبح كل شيء محتملاً!

• • • •

ذكّر سامر أمه بموعد إجراء اختبار من أجل قبوله كمهندس ديكور في صباح اليوم القادم باكرًا وهم في طريقهم لزيارة الجدة في المستشفى، راجيًا دعواتها له كما في كل مرة وعدم القلق لأنه لا يعلم كم سيستغرق الوقت لذلك، مضافًا له بُعد المسافة وازدحام الطريق؛ الصبر عليه حتى عودته كي لا تثير أعصابه باتصالها المستمر عن طريق المحمول الذي دخل حياتهم وأصبح جزءًا مهمًا فيها... قبّلته داعية بكل ما يسره وييسر أمره طول العمر، وعدته بعدم إزعاجه والتحمل حتى عودته بالبشرى صباح اليوم التالي.. دغدغ الفضول أفكارها، لكنها وقّت بوعدها لابنها مرغمة.

عند الساعة الرابعة عصرًا من يوم مزدحم الطريق يجهل سببه، عاد لها يساوره الشك في قبوله بهذا المجال وذلك لان منْ تقدم للاختبار مارس نوعًا من الفن كالرسم أو النحت أو... بعد عودته من مشواره بساعة حزم حقيبته الرياضية وكما تعود قبّل أمه على عجل ذاهبًا إلى ناديه الرياضي.

رنين الهاتف عصر قابضًا قلب يونا لا تعرف لماذا، همس زوجها أكد غريزة إحساسها، تمنت حينها لو كانت صماء كي لا تسمع ما لا تود سماعه، عقد لسانها عن نطق أي كلمة، خارت قواها عن

مساعدتها على النهوض، خفقت جاهدة في السؤال عن المتصل...

- لقد أصيب سامر في حادث بسيط ويحتاج مساعدتي في بعض الإجراءات

صفعتها كلمات زوجها كالخنجر عندما يغمد في القلب، ففكت عقد لسانها:

- سأذهب معك، قرار غير قابل للنقاش.

للتخفيف من هول الحدث:

- صدقيني لا داعي لحضورك، إنه بخير، سنعود معًا، بعد إكمال ما يحتاج من معلومات لقلة خبرته كما تعلمين.

لم تعينها قدماها على حمل جسمها فخرت ساقطة على مقعدها... استغل هاني الموقف وفرَّ من قبضتها، تركها تعاني آلام جراحها لوحدها كما في كل مرة، لكنها هذه كانت الأصعب احتمالاً عليها.

رجع بعد عشرة دقائق غياب حسبتها دهرًا، أذاب خلايا جسدها في أحشاءها... بثقة العالم بأسرار الكون ردد:

- أتيت لاصطحابك معي من أجل رؤية سامر.

صعقت من منظر السيارة وهي تتوسط الشارع العريض بالعرض وقد دخلت الباب حيث كان يجلس ابنها إلى داخل السيارة فبدت على شكل نصف قوس، حينها صرخت باكية بلا وعي:

- سامر... قرة عيني، نبض قلبي في الحياة، شريان روحي وأمل عمري، ثمرة صبري وتحمل المشاق.

طوقها زوجها بذراعيه ساحبًا إياها إلى سيارة الإسعاف حيث يرقد سامر للعلاج، برقت عيناه نورًا وبهاءً عندما لمحها تتقدم نحوه، قال والابتسامة بفرح منْ فاز بالكأس دون منازع علت محياه:

- إني بخير يا أمي لا تخافي فالرب دائمًا يحميني من أجلكِ

نُقل للمستشفى التي ترقد فيها جدته في العناية المركزة في الطابق الأول، استقر هو في الطابق الثالث بعد التأكد من سلامته، لقطع الشك باليقين وجب بقاؤه ليومين فيها.

عند الثامنة مساء نفس اليوم، اتصلت سها تسأل عن أمها، ومن واجب يونا الإجابة بما يرضيها حتمي:

- أين أمي؟ لقد اتصلت بها من قبل ساعة عدة مرات ولم تجبني، إني قلقه عليها.

لم تخفي يونا ضحكتها استهزاءً :

- حقًا؟ إني أستغربكِ جدًا، كيف يمكنكِ أن تكوني هكذا؟ أين كنتِ من الصباح حتى الآن؟ لم أفهم صمت وفاء هل لهذا القدر لا تعنيها أمها؟

بتعالي المستأجر لخادمه:

- لماذا تجادلين كثيرًا؟ إنكِ حقًا مملة... أجيبي على السؤال فقط.

- ببساطة لأنها طلبت مساعدتك أنتِ، اتصلت بكما لنجدتها، حقيقةً لا أفهم عدم اتصالها بي! فأنا منْ كُتب علية إنجاز المهام الخاصة بالوالدين على أكمل وجه بلا كلام أو نقاش!

- أنتِ تسكنين بقُربها، لذا أمرتكِ بالذهاب إليها.

لم تتحمل ثرثرة أختها فقاطعتها بحزم منْ يقدم على الموت مرفوع الرأس، فباحت بما جثم على أنفاسها بلا رحمة:

- نعم، هذا صحيح، لكن ربما ما خفي عنكِ أنكِ الآن هنا عند وفاء لا تفصلكِ عنها سوى أمتار حتى والله لا تحتاج للمواصلات... قبل أن أنسى ألم تخبريها بقدومكم من أجلها لتقضوا العطلة عندها وتسهري على راحتها وسعادتها؟

- هذا الشأن لا يعنيكِ، أنا منْ يقرر أين أقيم ولمن أذهب أو متى.

- التدخل في شؤون الآخرين أمقته لاحترامي خصوصيات غيري لذا لا أحب منْ يقتحم حياتي دون رضاي آمرًا ناهيًا.

قاطعتها متجاهلة:

- أي تدخل تقصدين؟

- لقد أبلغتني بما لا يخفى عني بمرض أمكِ، بل الذي لم أستوعبه كيف طاوعكما قلباكما بفصل الهاتف عن الشحن حتى لا تزعجكما بالاتصال، أي نوع من الحب تضمران لها؟ كيف أغمضتما جفونكما بهناء، نمتما براحة بال، تخرجي مع طليقكِ حتى المساء... تسألين وكأن القلق حرقكِ، القهر أدماكِ، الحزن نهشكِ، أستحلفكِ بما تعتقدين وتحبِ، أي نوع من البشر في دواخلكم تحملون؟

قاطعتها:

- على مهلكِ علينا، هذا واجبكِ تجاه أمكِ وأبيكِ.

ما تمقته يونا ويشد أعصابها، منْ يأمرها بما لم يدنو حتى مما

أمر ، وضوح التحدي في صوتها كوضوح الشمس:

- والله لم أتوانى لحظة ، لا أنتظر من أحد دفعة ، واجبي أعرفه وربكِ دون ضجة، ما أفعله برغبة، لا أنتظر وسامًا أو نجمة.

لم يروق لسها الحديث وهي مِن منْ لم يجف لسانهم عن النطق بالمثاليات يومًا ، كمنْ يسعر النار برمي الحطب هروبًا من مواجهة الحقيقة:

- لو كنتُ مكانكِ لفعلت الأكثر.

لم تنل المبتغى، ببرود الثلج ردت يونا:

- ألم تكوني هنا؟ ألم تبيعهما ببخس منْ أجل من تحبين وتفرين في سواد الليل هاربة؟ ثم انظري صمت أختنا الأكبر وكأن الأمر لا يمسها! تجيد باحتراف دور الضحية، لا همَّ لها غير التحريض والتدمير عندها كشرب ماء الزلال! فهي البريئة الساذجة مسلوبة الحق.

- أراكِ ساخطة متمردة على الجميع؟

- نعم ، حين يصبح الحمل ثقيلاً وليس هناك معين ، لابد من صرخة إغاثة، مناجاة للضمائر أملاً في إيقاظها من سباتها.

بنعومة نبرة المحب لحبيبه:

- ما وراءكِ؟

انهارت باكية كمنْ يتحين الفرصة:

- سامر راقد في نفس المستشفى التي ترقد فيها أمنا.

بانفعال واضح الاصطناع:
- ماذا به؟ هيا انطقي لقد سابت ركبتاي.

- أصيب في حادث ونجاه القادر بقدرته، محال التصديق أن ينجو منها بسلام! شكرًا للرب في علاه يقرأ خبايانا دون تزييف.

- أجلي ابتهالكِ هذا رجاءً لوقت آخر، وأخبريني عن أمي.

بهت يونا لحظة تبحث في قاموسها عن تفسير:
- إنها الحمد لله بخير، تجاوزت أزمتها الصحية نوعًا ما.

- نستطيع غدًا الذهاب أنا ووفاء للاطمئنان على الوالدة... برهة صمت كمنْ دار حديث جانبي أكملت: دون نقاش طبعًا على ولدنا سامر أيضًا.

لم يمنعها حبها لأختيها من الرفض، اتفقت معهما على الوقت، جلبتهما فيه أول ما كسرت طوق صمتها ووفاء به ما أن وطأت قدماها أرض المستشفى بوضح يخرق الأذنين:
- مسكين سامر، لو أنكِ كنتِ مكانه كان أفضل.

تداركت يونا لطمة أمنية أختها:
- هل عندكِ شكِ بأمنيتي أنا أيضًا بذلك؟

دخلت يونا تتقدم أختيها غرفة أمها سائلة عن صحتها، جاءها الرد بارد كالصقيع... لاحظت فرحتها عندما لمحت سها ووفاء خلفها، دبت الحياة فيها، حلّقت في الفضاء دون جناحين، ناسية أنها بشر تربطهُ بالحياة أجهزة مراقبة النبض والضغط!... سندتها يونا كي

تجنبها السقوط وهي تحاول النهوض لتقبيلهما.

• • • •

أقفلت سها إلى أسلو عاصمة النرويج بعد سفر عائلتها وعائلة وفاء للترويح عن ضيق صدرهم وأمهما مازالت راقدة في المستشفى تصارع الحياة إلى إيطاليا ، صور سفرتهم نزلت على ما يُسمى بـ"الفيس بوك" حديث الولادة طريقة التواصل للخراب والدمار البشري حيث يسد فراغ البعض بالتباهي في عرض التفاهات والمغريات على الملأ، إثباتًا لتأثرهما بمرض أمهما!

خرجت أم نبيل برفقة يونا إلى شقتها بعد تعافيها من المستشفى ، أيام معدودات بعدها انتقلت يونا إلى بيتها الجديد وعقلها يكويها بأفكاره حيرة على أمها من بعد بُعدها ؛ رغم أن أمها لم تذرف دمعة على فراقها كما فعلت عند رحيل عاطف وسها أو زاهر... طبيعة بشريه صارخة مشاعرنا تفيض كالبحر لمنْ يتجاهلها متناسيًا عمدًا أو ربما لأننا لم نكن في حسبانه لحظة! تعذيب أمها لها لم ينتهي ، كثرت شكواها من بعد هذا وصد باب تلك بوجهها واقتضاب حديث ذاك معها هاتفيًا وصوت نحيبها رثاءً لحالها يقطع أوصال يونا الممزقة ؛ شاركتها النحيب حين رددت أمها على مسامعها :

- بكى منْ بكى على عمر راح.

وآخر على حبيبه الذي راح وناح

وكم منْ بكى على وطنٍ وباح

وأنا التي فنيت عمري على وهم لاح

كان سراب ليل... مع أول خيوط الشمس تجلى وضاح

رب العباد أنعم عليّ بالإحساس فهجرني الراح

ذنبي أعطي منبسطة الراح

لا يعود ما سلب مني بسراح

ولا ناري تخمد بالأفراح

عشت مكبلةً بالأتراح

وأدمتني الجراح

هل عندما تنطبق جفناي هناك فسيح براح ؟

كانت يونا تتحين الفرص لزيارتها ورد وحشتها، في كل مرة كان تودعها وقلبها تنزف جراحه التي لم تندمل من قسوتها؛ رغم أن يونا هي منْ كان متكلفًا بقضاء كل ما يحتاجه والداها وبكل الطرق... قهرها على ما آله له وضعهما... سهرها أيامًا عند مرض أحدهما خوفًا من المقدر الذي ليس للإنسان حكم عليه وكيفية تحمله وتر أعصابها بمعاملتها مع ولديها، قضاؤها ساعات طوال متفكرة من عدم سؤال إخوانها عنهما حتى لو بالهاتف، تذمر هذا وتعذر ذاك بأسباب واهية حين طلبها المساعدة في تخفيف الحمل عن كاهلها جعلها تتحمله وحدها؛ لأسباب تجهلها كان يأتيها التأنيب من إخوانها بعد اتصال هاتفي من أمهم له أو ربما لغاية ما في نفسه تجهلها هي؛ قسوة الأولاد على الآباء،

الجفاء والإجحاف بحقهم لا يحتمل بل إنه قاتل بعد تعبهما سنين! فالنبات دون حب لا يزهر ويعيش.

اتصلت بها أمها مبشرة مهللة بما طال انتظاره، ولاء وافقت لنقلها قُربها إلى برلين أخيرًا؛ حين تجد سكنًا مناسبًا لهم، شرط أن تبعث لها حالاً مبلغًا من المال لفتح مشروع... لم يخف على يونا هدف ولاء حين شكت لها في إحدى اتصالاتهما الهاتفية شعورها بالغربة وصعوبة تحمل تربية بنتها لوحدها، بطيب يونا وسذاجتها اقترحت عليها حينها الانتقال بقربها فاجأها رد أختها العنيف بأنها ترغب بذلك فقط كي ترمي بحمل والديها عليها... خوف أمها بمواجهة المنية وحيدة دفعها قبول العرض!

الحال بقى على ما هو عليه مع فارق بسيط، أم نبيل عاشت مع صناديق الكارتون التي حفظت بها كل أمتعتها استعدادًا للانتقال لمدة سنة ونصف بوعود كاذبة غدًا وبعد غد، أصبحت شقتها لا تُطاق! يعيق الحركة فيها هرم الصناديق هنا وهناك!

في ظهر أحد الأيام ويونا مشغولة بابنها الصغير ذي السادسة عشر طريح الفراش بعد إجراء عملية له في مفصل رجله حيث لم يطمئن عليه أي أحد من أهل الأبوين لانشغالهم المبالغ به في الحياة؛ فتجمدت مشاعرنا ونسينا أعرافنا... اتصل أخوها عاطف من كندا، فرحتها لم تسعها لتصورها بأنه يود الاطمئنان على ولدها نوح، خذلها حين أمرها بالذهاب حالاً لأمها لأنها بالكاد تأخذ نفسها وقد مضى على وقت أخذ إبرة الأنسولين أكثر من ثلاث

ساعات حيث أنها لم تفتح الباب للممرضة التي تتابع حالتها... رجته يونا بالاتصال بوفاء للقيام باللازم لحين وصولها...

حزمت أمرها، يقينها أكيد أنها سوف لا تسمع الجديد، استعدت كي تسابق الزمن، علها تستطيع تحدي القدر، فأخر ما يموت فينا هو الأمل.

عاود اتصاله بها، وقبل أن ينبس بكلمه أجابته:

- رفضتْ أليس كذلك؟ كما في كل مرة، إني في الطريق إلى أمي، مع السلامة.

- نعم ، مع السلامة.

قادت سيارة العائلة الخصوصي بسرعة جنونية حتى تصل قبل فوات الأوان...

عند باب شقة والدتها شكرت الممرضة المتابعة لحالة صحة أمها لتعاطفها معها حين اتصلت بها راجية انتظارها هنا وهي تفتح الباب بالمفتاح الاحتياطي الذي ائتمنتها أمها عليه لكسب كل دقيقة من الوقت... دخلتا على عجل لتريا أمها مرمية على أريكتها دون حراك!

انتهت



المؤلفة في سطور

- قاصة وروائية عراقية، من مواليد بغداد ١٩٦٨م.
- حاصلة على الشهادة الإعدادية الفرع العلمي .
- تم قبولها في المعهد الطبي الفني في العاصمة بغداد عام ١٩٩٠ وبسبب هجرتها مع زوجها لم تلتحق به.
- أسست مع زوجها مجلة ناطقة باللغة العربية بعنوان "ميمرا الكلمة" ، في ميونخ عام ١٩٩٩ واشتركت في تحريرها لمدة عامين طول عمر المجلة.
- نشرت مجموعة من القصص القصيرة في مواقع ومجلات عراقية وعربية منها : منتدى الوالي للقصة القصيرة ، مجلة العهد ، الحوار المتمدن ، ديوان العرب ، مركز النور ، الناس وغيرها الكثير.

- الإصدارات :

ـ تحت غطاء الرب : رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٧

ـ يونا (حمامة سلام) : رواية. شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٨

ـ نزوة : مجموعة قصص قصيرة. تحت الطبع. شمس للنشر والإعلام

- البريد الإلكتروني : nehaya.badi@outlook.de



Tel : (+2) 01288890065
www.shams-group.ne